معاً على طريق الدعوة

شيخ الإسلام ابن تيمية
و
الإمام الشهيد حسن البنا

محمد عبدالحليم حامد

هذا الكتاب

يتحدث عن قضايا إسلامية كبرى ، كانت ولازالت محل اتفاق بين
امامين عظيمين ، هما شيخ الإسلام ابن تيمية ، والإمام الشهيد حسن
لبنا ، اللذان أيقظا الأمة بعد سُبات ، وحرَّكاها بعد همود ، وأطلقاها
عد جمود .

* وقد حصر المؤلف هذه القضايا فى خمس هى :
* الحرص على الأُخوة والجماعة .
* التصوف .
* الخلاف فى الفروع الفقهية .
* حكم التقليد .
* العقيدة .

وكان التركيز على جانب العقيدة لأهميته ، فذكر ثلاث حقائق
هامة جدًا ، لا ينبغى أن تغيب عن ذهن دارس العقيدة ، وحامل الدعوة
وهى :

* بعض الانحرافات التى تسربت لعقائد المسلمين .
* التوسل .
* الصفات بين السلف والخلف .

والله نسأل أن ينفع به أبناء أمتنا الإسلامية
وهو الهادى ، والموفق إلى صراطه المستقيم ،،،

الناشر



معا على طريق الدعوة

شيخ الإسلام ابن تيمية

و

الإمام الشهيد حسن البنا

محمد عبد الحليم حامد





دار التوزيع والنشر الإسلامية

٨ ميدان السيدة زينب ت : ٣٩١١٩٦١ ص . ب : ١٦٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــــــة

الحمد لله على نعمة الإيمان به ، وشرف العبودية له ، وصلوات الله وسلامه على خاتم رسله ، وسيد خلقه ، نبينا محمد . وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهديه .

أما بعــد .

فإن العلم رحم بين أهله ، ومن شأنه أن يجمع ولا يفرق يؤلف ولا يمزق .

فأهل العلم والتقى ودعاة الحق دائما يلتقون مهما تباعد الزمان ، وتباين المكان .

دائماً يلتقون مهما افترقت الطرق أمام السائرين .. وتواردت الشبه على الناظرين ...

دائماً يلتقون لأنهم يستقون من معين واحد ، ويقتبسون من مشكاة واحدة ، من كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ وهذا من شأنه أن يوحد الفكر والنظر .. فتأتى الآراء متجانسة ، وثمار الأفعال متقاربة ، كأنها صادرة عن واحد لا أكثر .

هذا كله فى الأصول الجليلة ، والخطوط العريضة ، والقواعد الثابتة .

● وهذه الحقائق قد لمستها عندما عشت مع إمامين جليلين أثناء إعدادى لرسالة « الماجستير » ، والتى تناولت تحليل ومناقشة بعض السلبيات فى الصحوة الإسلامية فى العصر الحديث ، وبيان أسبابها ، وتقديم العلاج لها من خلال منظور علماء الإسلام الثقات الذين يحتلون مكانة سامية ، ومنزلة عالية فى نفوس أبناء الصحوة . لا سيما القدامى منهم .

● وأثناء المطالعة والبحث تجلى لى التقاء إمامين جليلين فى كثير من القضايا الهامة ، والمسائل الشائكة ، المطروحة على الساحة اليوم ، فأخذت أدون ذلك وأسجله ، وتفرغت لهذا الأمر الهام عدة أيام ، وأعددت هذا البحث قبل إنهاء الرسالة فقد كان فى الوقت فسحة . وعندما انتهيت من الرسالة بعون الله وتوفيقه عدت إلى هذا البحث لأنقحه وأقدم هذه الباكورة هدية لأبناء الصحوة الإسلامية .

● وهذان الإمامان هما : شيخ الإسلام ابن تيمية
والإمام الشهيد حسن البنا

اللذان أحيا الله بكل منهما الأمة بعد ممات ، وأيقظها بعد سبات ، وحركها بعد همود ، وأطلقها بعد جمود .

● ولقد ترك الإمامان كنوزاً ثمينة تتعلق بجوانب شتى فى العقيدة والأصول ، والأخلاق والدعوة ، والتاريخ والغزو

الفكرى ... فأخذت قبضة من كنوز هذه الجوانب فتكلمت عن موقف الإمامين من الموضوعات التالية :

● الحرص على الأخوة والجماعة .
● التصوف .
● الخلاف فى الفروع الفقهية .
● حكم التقليد .
● العقيـدة .
● وختمت البحث بأقوال ومواقف للإمامين تهم الدعاة خاصة وكل مسلم عامة .

ومن الجدير بالذكر أن أبين أننى قد ركزت على جانب العقيدة لأهميته فذكرت حقائق هامة جداً لا ينبغى أن تغيب عن ذهن دارسى العقيدة ، وحاملى الدعوة .

وباستحضارها والتزامها تحل كثير من المشكلات بفضل الله تعالى .

فتعرضت لموقف الإمامين مما يلى :
● بعض الانحرافات التى تسربت لعقائد المسلمين .
● التوســل .
● الصفات بين السلف والخلف .

ولقد اخترت الكلام عن الجوانب السابقة من فكر الإمامين وحياتهما لأمور أهمها :

● أن هذه القضايا لها آثارها الظاهرة الساخنة على ساحة

الميدان اليوم .

● أن هذه الجوانب مشتبه فى الالتقاء عليها عند بعض الناس ، فأردت أن أوضح موقف الإمامين بدقة لكى تظهر حقيقة هذه الدعوى ومقدار صدقها .

● أن لآراء الإمامين وزنها العظيم فى نفوس شباب الصحوة الإسلامية .

ولقد آثرت فى البحث أن أستقى من كلام الإمامين مباشرة فأعرضه كما هو جلياً واضحاً .

وتركت الأخذ عمن كتب عنهما شارحاً أو مفسراً . معلقاً أو مستنبطاً ....

● فبالنسبة لشيخ الإسلام رجعت إلى مؤلفه الزاخر ، وكنزه الثمين : « مجموع الفتاوى » .

وعلى هذا ارتكز البحث ، إلا فى مرات نادرة لا تخل بالمنهج والقصد .

● وبالنسبة للإمام الشهيد رجعت إلى درته الثمينة ، وزبدة فكره العظيمة « مجموعة الرسائل »

« ومذكرات الدعوة والداعية »

إلا فى مرات نادرة لا تخل كذلك بالمنهج والقصد .

هذا ، والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم .

نبذة عن حياة الإمامين

شيخ الإسلام :

● ولد شيخ الإسلام فى حران فى شهر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ وسماه والده بأحمد تقى الدين ، واكتنى بأبى العباس ولكنه اشتهر بلقبه النسبى (ابن تيمية) .

● تربى شيخ الإسلام فى أسرة اشتهرت بالعلم والدين فعاش فى جو علمى أصقل مواهبه ، فجده صاحب (منتقى الأخبار) الذى شرحه العلامة الشوكانى فى كتاب (نيل الأوطار) ...

● انتقلت أسرة ابن تيمية من حران إلى دمشق نظراً لهجوم التتار الوحشى .

● انتهى شيخ الإسلام من حفظ القرآن الكريم مبكراً ، وكان يحضر مجالس التدريس والوعظ عند والده رغم صغر سنه .. وأخذ يتلقى فنون العلوم المختلفة من فقه وحديث ولغة ...

● كان رحمه الله ذا ذاكرة عبقرية ، وسرعة حفظ أدهشت العلماء . وكان عازفاً فى صغره عن اللعب واللهو .. كما هى عادة الصغار . واتجه للعلوم مبكراً .

● بدأ شيخ الإسلام التدريس ولم يتجاوز الثانية والعشرين

وذلك فى محرم سنة ٦٨٣ هـ ...

● حمل رحمه الله لواء الدعوة السلفية ، ونافح عن عقيدة السلف الصالح ، ونقد علم الكلام نقداً لاذعاً ، وحمل على من خلطوا العقيدة بالفلسفة ، ودعا إلى نقاء العقيدة كما كانت فى الصدر الأول ...

● كما أنه رحمه الله كان يحمل حملات شديدة على البدع والمنكرات التى سادت فى عصره ...

● وبتعبير موجز : كان همه رحمه الله العودة بالمسلمين إلى المعين الصافى : كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ ، وسيرة السلف الصالح .

● وقد حمل رحمه الله لواء الجهاد فى عصره ، فقد كان له اليد الطولى فى التصدى لهجمات التتار الوحشية التى بدأت بشراسة فى مستهل سنة ٦٩٩ هـ ، وقضى على شر هؤلاء التتر فى معركة حاسمة أهلكتهم فى رمضان سنة ٧٠٢ هـ

● وقد كانت حياته رحمه الله جهاداً من أجل نصرة دين الله ، والتصدى لطوائف الملحدين الفاسدين المفسدين ، فقد جاهد الروافض الخونة ، والنصيريين العملاء ... وطوائف الباطنية والإسماعيلية والحاكمية ... ونقد عقائد الزيغ والضلال كوحدة الوجود والحلول ... وجاهد كل ذلك جهاد الأبطال .

● ولقد تعرض رحمه الله لمحن كثيرة ، وإيذاءات متعددة ،

لكنه ثبت ، ولم تنثن له قناة ...

● وكانت محنته الأخيرة فى شعبان سنة ٧٢٦ هـ حيث حبس بسجن القلعة بدمشق .

ولقى ربه فى ليلة ٢٢ من شهر ذى القعدة سنة ٧٢٨ هـ .

وقد شيع جنازته رحمه الله عشرات الألوف وحضرها الزعماء والعلماء ... والرجال والنساء ...

● وقد خلف رحمه الله تراثاً علمياً ذاخراً ، ومؤلفات كثيرة جداً ، استمر نفعها إلى يومنا هذا .

● وقد حظى شيخ الإسلام بالقبول والاحترام ، فهو لا يزال إلى يومنا هذا رائداً من رواد الصحوة الإسلامية المعاصرة .

فرحمة الله ورضوانه عليه

الإمام الشهيد :

● ولد الإمام الشهيد حسن البنا بمدينة المحمودية بمحافظة البحيرة بمصر سنة ١٩٠٦ هـ .

● تربى الإمام الشهيد فى أسرة اشتهرت بالعلم والدين فأبوه الشيخ أحمد عبدالرحمن البنا من العلماء العاملين ، وقد اشتغل بعلوم السنة ، ومن أهم مصنفاته : « الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى » .

وكان إلى هذا يحترف تجليد الكتب وإصلاح الساعات لذا لقب بالساعاتى .

● تلقى الإمام الشهيد علومه الأولية فى مدرسة الرشاد الدينية ، ثم بالمدرسة الإعدادية بالمحمودية .

● وبدأ اهتمامه فى سن مبكر بالعمل الإسلامى المنظم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فأنشأ مع زملائه فى الدراسة « جمعية الأخلاق الأدبية » ثم « جمعية منع المحرمات » .

● وكان رحمه الله شغوفاً بحفظ المتون من الصغر ، وكان ذا ذاكرة قوية ..

● انتقل رحمه الله إلى دار المعلمين بدمنهور سنة ١٩٢٠ حيث أتم حفظ القرآن الكريم قبل إتمام الرابعة عشرة من عمره .

● وفى عام ١٩٢٣ م انتقل إلى القاهرة حيث انتسب إلى دار العلوم . وهناك تفتحت أمام الإمام الشهيد آفاق واسعة ، فأخذ يتصل بالعلماء بشكل واسع .

● فكان يرتاد المكتبة السلفية ويحضر مجالس الأستاذ « محب الدين الخطيب » حيث يلتقى العلماء والمفكرون ...

● كذلك كان يتردد على مجالس الشيخ « رشيد رضا » ... واتصل بكثير من العلماء الأزهريين .

وكانت له مواقف رائعة فى الحث على ضرورة العمل للإسلام بشتى الوسائل ، لصد موجة الإلحاد والإباحية التى تعرض لها العالم الإسلامى آنذاك .

● وتبلورت معالم الدعوة إلى الله فى ذهنه وملكت عليه نفسه .. فبدأ يتنقل مع عدد من زملائه داعياً إلى الله فى المجالس والمقاهى والمنتديات .

● فى عام ١٩٢٧ م تخرج الإمام الشهيد فى دار العلوم وكان ترتيبه الأول . وعين مدرساً بمدينة الإسماعيلية على قناة السويس .

● وهناك بدأ رحمه الله نهجاً مدروساً فى الدعوة ، فكان يتصل بالناس فى المقاهى ثم ينتقل بهم إلى المسجد ويربيهم على الإسلام الحى المثمر .

● فى شهر ذى القعدة سنة ١٣٤٧ هـ ـــ مارس ١٩٢٨ م

كانت النواة الأولى لجماعة الإخوان المسلمين حيث تعاهد مع ستة
نفر على تكوين هذه الجماعة .

● تميزت الدعوة من أول يوم بالعودة إلى الينابيع الإسلامية
الأصيلة : كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وعمل السلف الصالح
وحرص الإمام الشهيد على غرس شمولية الإسلام فى النفس ، وأن
الإسلام عقيدة ، وشريعة ومنهج حياة كامل .

● وجاهد البدع والمنكرات والخرافات الفاشية فى عصره ،
وبدأ فى بناء مؤسسات للجماعة ، فأقام مسجداً ، وداراً
للإخوان ، ثم معهد حراء الإسلامى ، ومدرسة أمهات المؤمنين ،
فى مدينة الإسماعيلية ، وبدأت الدعوة تنتشر فى القرى والمدن
المجاورة .

● فى عام ١٩٣٢ م انتقل الإمام الشهيد إلى القاهرة وبذلك
انتقل المركز العام للإخوان إلى القاهرة ، وأخذ يربى جيلاً من
شباب الدعوة تربية إسلامية عميقة تمهيداً لحمل أعباء الدعوة .

● وكان رحمه الله شعلة من الحركة والنشاط فكان يقوم
برحلات متتابعة إلى الأقاليم يصحب فيها إخوانه ويلقنهم عملياً
كيف ينشرون الدعوة .

● حرص الإمام الشهيد على ألا تكون حركته إقليمية فى
حدود القطر المصرى ، بل كانت عالمية بعالمية الدعوة الإسلامية .

لذلك وجدناها تمتد فى الأربعينات لتشمل العالم العربى كله ،

ولتنطلق بعد ذلك فى أقطار العالم الإسلامى .

وكان الإمام الشهيد يرسل المبعوثين إلى أقطار العالم الإسلامى
يتفقدون أحوال المسلمين وينقلون إلى القاهرة صورة عن واقع
العالم الإسلامى .

وكان المركز العام بالقاهرة ملتقى المجاهدين المسلمين من كل
أنحاء العالم فى وقت كانت فيه معظم أقطار العالم الإسلامى ترزح
تحت الاحتلال الأجنبى . فقد شهد المركز العام رجالات حركات
التحرير فى شمال إفريقيا . وأحرار اليمن ، وزعماء الهند وباكستان
وإندونيسيا وأفغانستان .. والسودان والصومال وسوريا والعراق
وفلسطين . وغير ذلك .

● وحمل الإمام الشهيد لواء الجهاد ضد الاستعمار الأجنبى
الغاشم من الانجليز ، والفرنسيين ، واليهود ... وقام بجهود عظيمة
فى قضية فلسطين ، وكان للإخوان المسلمين مواقف مشهودة فى
الجهاد حيث لقنوا اليهود وأذنابهم دروساً لن ينسوها .

وفى عام ١٩٤٨ م تآمر الاستعمار وعملاؤه على الإخوان
المسلمين .

فأصدرت الدول الغربية الكبرى الأوامر إلى الحكومة المصرية
بضرورة حل جماعة الإخوان المسلمين واعتقال رجالها المجاهدين
العائدين من القتال ، ومن هم فى ميدان القتال أيضا .

وأبقى الإمام الشهيد وجده خارج السجن بعد أن حيل بينه
وبين تلاميذه . ليتم لأعداء الإسلام مايريدون وما يدبرون .

• وفى ١٢ من شهر فبراير سنة ١٩٤٩ م اغتيل الإمام الشهيد فى أحد شوارع القاهرة على أيدى زبانية الملك فاروق ...

• خلف الإمام الشهيد مؤلفات عديدة أهمها مجموعة الرسائل التى جمعت فى كتاب ، وكذلك مذكرات الدعوة والداعية وكثير من المخطوطات ، وقد كانت هذه المؤلفات على قلتها وصغر حجمها خيراً وبركة ، فقد حوت المعانى الكثيرة الجليلة بأسلوب وعبارة دقيقة عذبة موجزة يسهل هضمها وتجمع للمرء ما يحتاجه فى دقائق معدودة تغنيه عن البحث الطويل ...

وقد فرغ رحمه الله جهوده للدعوة والتعليم والإرشاد . وبناء الجماعة والتربية والانتقال بين الأقاليم ... لإيقاظ الأمة الخامدة وردها إلى ربها وإلى دينها .

لقد اهتم بتأليف الرجال الذين أثروا المكتبة الإسلامية بمؤلفاتهم النابضة الحية وجاهدوا فى سبيل الله ورفعوا راية الإسلام فى كل القارات الخمس ، ووقفوا أمام الباطل وكشفوا أصابع وألاعيب الاستعمار فى كل مكان ، وقاوموا أهل المنكرات والإلحاد والضلال ، وقدموا للناس الإسلام بشموله وكماله وعالميته ، بعيدا عن تأويل الجاهلين ومزايدات المزايدين ، قدموا الإسلام سهلا واضحا لا غموض فيه ولا التواء .

فجزاه الله خيرا ، ورحمه رحمة واسعة وتقبله فى الصالحين

آميـــــن

مصدر التلقى ومرجع الأحكام

إن تحديد منهج التلقى والاقتداء لأى دعوة يكون عنواناً ، ويعطى مؤشراً على استقامتها أو اعوجاجها ، صلاحها أو فسادها ، اهتدائها أو زيغها وضلالها .

وإنه لمن المقرر لدى الجيل الأول أن مرجع الأحكام لكل مسلم هو كتاب الله وسنة رسوله فهما المعين الصافى الذى يتلقى منه الهدى فى كل شئون حياته .

وبعد القرون الثلاثة الفاضلة خلط المسلمون معينهم الصافى بكدر الفلسفات وغيرها ...

فنشأت عند المسلمين بعض التصورات المنحرفة التى استبدت بهم ، وأثرت فى سلوكهم ، فأوردتهم مسالك الضلال والردى .

وكان من فضل الله تعالى على هذه الأمة أنه يبعث فى كل قرن من يجدد لها أمر دينها ، وينفى عنه كل باطل وضلال ، وزيغ وانحراف ..

ويرد الأمة إلى معينها الصافى تنهل منه فتحيا حياة طيبة .

ولقد جاء شيخ الإسلام رحمة الله عليه ، وللناس مراجع شتى ينهلون منها ، ويستندون إليها ، وقد اختلطت هذه المراجع والمصادر اختلاطاً فتن كثيراً من الناس .

اختلط الحق بالباطل ، والهدى بالضلال ، والصحيح بالسقيم فجاهد شيخ الإسلام لرد الناس إلى ماكان عليه الجيل الأول إلى المصدر الصافى النقى الخالى من الكدر ، ونفى عن هذا المصدر كل

شائبة علقت به .

وكذلك الحال عندما جاء الإمام الشهيد عليه رحمة الله .

لقد اختلط الحابل بالنابل ، والخالص بالزيوف .. فصرخ فى الناس أن عودوا إلى ماكان عليه الجيل الأول .

فالتقى الإمامان على تحديد منهج الدعوة ومصدرها ، ومرجع المسلم ومستنده .

ألا وهو كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ وعمل السلف الصالح واستبعاد ماعدا ذلك إلا أن يدور فى فلك الكتاب والسنة ، حينئذ يستند إليه لموافقتهما .

بعد هذا الإجمال آتى إلى التفصيل لمعرفة المرجع الأصيل من الدخيل .

الكتاب والسنة :

من الأمور الجلية التى لا تحتاج إلى كلام كثير أن الإمامين ركزا على ضرورة اتباع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما وافقهما ، والإعراض عن كل ماخالفهما .

قال تعالى :

﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه

ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾[١] .

﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾[٢] .

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾[٣] .

﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[٤] .

﴿ فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول ﴾[٥] .

ولا يكاد المرء يقرأ أى كتاب لشيخ الإسلام إلا ويجد فيه التنبيه إلى ضرورة اتباع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وطاعة الله ورسوله طاعة كاملة .

وأنه لا معصوم بعد الرسول ﷺ ولا تجب طاعة أحد بعده فى كل شىء .

فالاتباع المطلق دائر مع الرسول وجوداً وعدماً[٦] .

وقد ركز الإمام الشهيد على الأمر نفسه ، وبين أصل الدعوة ومرجعها هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ منهما يستمد المرء عقيدته وشريعته وأخلاقه .

---

(١) المائدة : ١٥ ، ١٦ .

(٢) النساء : ٥٩ .

(٣) النساء : ٦٤ .

(٤) الحشر : ٧ .

(٥) النساء : ٥٩ .

(٦) أنظر الفتاوى ١٩ / ٦٦ : ٧١ .

وفهمه للإسلام ، وقيمه ومبادئه ...

فقال رحمه الله : « دعوتنا « إسلامية » بكل ماتحتمل الكلمة من معان فافهم فيها ماشئت بعد ذلك ، وأنت فى فهمك مقيد بكتاب الله ، وسنة رسوله ، وسيرة السلف الصالحين من المسلمين .

فأما كتاب الله فهو أساس الإسلام ودعامته .

وأما سنة رسوله فهى مبينة الكتاب وشارحته .

وأما سيرة السلف الصالح فهم رضوان الله عليهم منفذو أوامره ، والآخذون بتعاليمه ، وهم المثل العملية ، والصورة الماثلة لهذه الأوامر والتعاليم[١] .

ويبين مصادر الدعوة ومرتكزاتها فيقول رحمه الله :

« وعمادنا فى ذلك كله » :

- كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .
- والسنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ .
- والسيرة المطهرة لسلف هذه الأمة[٢] .

ويقول فى بنود ركن الفهم أحد أركان البيعة العشرة :

« ٢ ــ والقرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم فى تعرف

---

(١) مجموعة الرسائل (دعوتنا) ص ١٦ .

(٢) مجموعة الرسائل (إلى الشباب) ص ٨٤ .

أحكام الإسلام ، ويفهم القرآن طبقاً لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف ويرجع فى فهم السنة المطهرة إلى رجال الحديث الثقات »[١] .

ويقول تحت عنوان : « نحن والسياسة » :

« ويقول قوم آخرون إن الإخوان المسلمين قوم سياسيون ودعوتهم دعوة سياسية ، ولهم من وراء ذلك مآرب أخرى .

ولا ندرى إلى متى تتقارض أمتنا التهم ، وتتبادل الظنون ، وتتنابز بالألقاب ، وتترك يقيناً يؤيده الواقع فى سبيل ظن توحيه الشكوك ؟

ياقومنا : إننا نناديكم والقرآن فى يميننا ، والسنة فى شمالنا ، وعمل السلف الصالحين من أبناء هذه الأمة قدوتنا ، وندعوكم إلى الإسلام وتعاليم الإسلام وأحكام الإسلام وهدى الإسلام .

فإن كان هذا من السياسة عندكم فهذه سياستنا .

وإن كان من يدعوكم إلى هذه المبادىء سياسياً فنحن أعرق الناس والحمد لله فى السياسة . وإن شئتم أن تسموا ذلك سياسة فقولوا ماشئتم فلن تضرنا الأسماء متى وضحت المسميات وانكشفت الغايات[٢] .

---

(١) مجموعة الرسائل (رسالة التعاليم) ص ٢٦٨ .

(٢) مجموعة الرسائل (إلى أى شىء ندعو الناس) ص ٣٥ .

لا عصمة لغير الرسول ﷺ :

وقد أكد الإمام الشهيد هذه الحقيقة ، وركز عليها ، وجعلها من أسس دعوته .

فقال فى بنود ركن الفهم أول أركان البيعة العشرة .

« ٦ ــ وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا المعصوم ﷺ ، وكل ماجاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقاً للكتاب والسنة قبلناه .

وإلا فكتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ أولى بالاتباع ، ولكنا لا نعرض للأشخاص ــ فيما اختلف فيه ــ بطعن أوتجريح ، ونكلهم إلى نياتهم ، وقد أفضوا إلى ماقدموا »(١) .

وبذلك يكون الإمام الشهيد قد خلع الناس من الارتباط بالأشخاص والتعصب لهم مهما كانوا ، ووجه الدعوة وأتباعها إلى المصدر الرئيسى ، والميزان السماوى : الكتاب والسنة . مع الاحترام الكامل ، والأدب الجم مع سلف الأمة وعلمائها .

حكم الإلهام والكشف والرؤى :

لقد تعرض الإمامان الجليلان لمسألة هامة تتعلق بمصادر الأحكام ومراجعها .

ألا وهى : حكم الكشف والرؤى والإلهام ...

(١) مجموعة الرسائل (رسالة التعاليم) ص ٢٦٩ .

وحقيقة لقد ضل فى هذه المسألة أقوام ، وزلت أقدام ، فغالى قوم ، وقصر آخرون .

أما الإمامان رحمهما الله فقد قالا فيها بالعدل والحق والميزان :

فأقرّا بوجود الإلهام والرؤى والكشف ... وحصوله لبعض الناس .

وبينا أن هذه الأشياء ليست حجة بنفسها وحدها إذ لابد من ميزانها بالميزان الشرعى الثابت وعرضها عليه ، فإذا وافقته قبلت وإذا خالفته ردت .

فقال شيخ الإسلام بتفصيل مفيد ممتع :

« الجواب فى المسائل العلمية يعتمد فيه على ماجاء به الكتاب والسنة ، فإنه يجب على الخلق التصديق به ، وما كشف للإنسان من ذلك ، أو أخبره به من هو صادق عنده ، فهذا ينتفع به من علمه ، ويكون ذلك مما يزيده إيماناً وتصديقاً بما جاءت به النصوص ،ولكن لا يجب على جميع الخلق الإيمان بغير ماجاءت به الأنبياء ، فإن الله عز وجل أوجب التصديق بما جاءت به الأنبياء .

كما فى قوله تعالى : ﴿ **قولوا آمنا بالله** ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ **ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين** »(٢) .

(١) البقرة : ١٣٦ .

(٢) البقرة : ١٧٧ .

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « **قد كان فى الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن فى أمتى أحد فعمر** »[٣] .

فالمحَدَّث ، الملهم المكاشف من هذه الأمة يجب عليه أن يزن ذلك بالكتاب والسنة ، فإن وافق ذلك صدق ماورد عليه وإن خالف لم يلتفت إليه ...

فلهذا لا يعتمد أهل العلم والإيمان فى مثل مسائل العلم والدين إلا على نصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة .

وإن كان عندهم فى بعض ذلك شواهد وبينات فما شاهدوه ووجدوه ، ومما عقلوه وعملوه ، وذلك ينتفعون به هم فى أنفسهم .

وأما حجة الله على عباده فهم رسله .

وإلا فهذه المسائل فيها من الدلائل والاعتبارات العقلية والشواهد الحسية الكشفية ماينتفع به من وجد ذلك .

وقياس بنى آدم وكشفهم تابع لما جاءت به الرسل عن الله تعالى ، فالحق فى ذلك موافق لما جاءت به الرسل عن الله تعالى ولا مخالف له .

ومع كونه حقاً فلا يفصل الخلاف بين الناس ، ولا يجب على من لم يحصل له ذلك التصديق به .

كما يجب التصديق بما عرف أنه معصوم ، وهو كلام الأنبياء ،

---

(٣) (خ ٣٦٨٩ ، م ٢٣٩٨) .

صلوات الله وسلامه عليهم .

ولكن من حصل له فى مثل هذه الأمور بصيرة أو قياس أو برهان كان ذلك نوراً على نور .

قال بعض السلف : بصيرة المؤمن تنطق بالحكمة ، وإن لم يسمع فيها بأثر . فإذا جاء الأثر كان نوراً على نور[١] . ﴿ **ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور** »[٢] .

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله عن الرؤيا :

« والرؤيا المحضة التى لا دليل يدل على صحتها لا يجوز أن يثبت بها شىء بالاتفاق .

فإنه قد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « الرؤيا ثلاثة :

رؤيا من الله

ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه

ورؤيا من الشيطان[٣].

فإذا كان جنس الرؤيا تحته أنواع ثلاثة ، فلابد من تمييز كل نوع منها عن نوع[٤] .

---

(١) لفتاوى : جـ ٢٤ ص ٣٧٦ : ٣٧٨ .

(٢) النور : ٤٠ .

(٣) (خ ٧٠١٧ ، م ٢٢٦٣) .

(٤) الفتاوى جـ ٢٧ ص ٤٥٨ .

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « قد كان فى الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن فى أمتى أحد فعمر »[٣] .

فالمحَّدث ، الملهم المكاشف من هذه الأمة يجب عليه أن يزن ذلك بالكتاب والسنة ، فإن وافق ذلك صدق ماورد عليه وإن خالف لم يلتفت إليه ...

فلهذا لا يعتمد أهل العلم والإيمان فى مثل مسائل العلم والدين إلا على نصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة .

وإن كان عندهم فى بعض ذلك شواهد وبينات فما شاهدوه ووجدوه ، ومما عقلوه وعملوه ، وذلك ينتفعون به هم فى أنفسهم .

وأما حجة الله على عباده فهم رسله .

وإلا فهذه المسائل فيها من الدلائل والاعتبارات العقلية والشواهد الحسية الكشفية ماينتفع به من وجد ذلك .

وقياس بنى آدم وكشفهم تابع لما جاءت به الرسل عن الله تعالى ، فالحق فى ذلك موافق لما جاءت به الرسل عن الله تعالى ولا مخالف له .

ومع كونه حقاً فلا يفصل الخلاف بين الناس ، ولا يجب على من لم يحصل له ذلك التصديق به .

كما يجب التصديق بما عرف أنه معصوم ، وهو كلام الأنبياء ،

---

(٣) (خ ٣٦٨٩ ، م ٢٣٩٨) .

صلوات الله وسلامه عليهم .

ولكن من حصل له فى مثل هذه الأمور بصيرة أو قياس أو برهان كان ذلك نوراً على نور .

قال بعض السلف : بصيرة المؤمن تنطق بالحكمة ، وإن لم يسمع فيها بأثر . فإذا جاء الأثر كان نوراً على نور[١] . ﴿ **ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور** ﴾[٢] .

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله عن الرؤيا :

« والرؤيا المحضة التى لا دليل يدل على صحتها لا يجوز أن يثبت بها شىء بالاتفاق .

فإنه قد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « الرؤيا ثلاثة :

رؤيا من الله
ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه
ورؤيا من الشيطان[٣] .

فإذا كان جنس الرؤيا تحته أنواع ثلاثة ، فلابد من تمييز كل نوع منها عن نوع[٤] .

---

(١) لفتاوى : جـ ٢٤ ص ٣٧٦ : ٣٧٨ .

(٢) النور : ٤٠ .

(٣) (خ ٧٠١٧ ، م ٢٢٦٣) .

(٤) الفتاوى جـ ٢٧ ص ٤٥٨ .

هذا هو رأى شيخ الإسلام رحمة الله عليه فى المسألة مدعماً بالأدلة الجلية .

وقال الإمام الشهيد بعبارة موجزة جامعة ، حوت الخلاصة والفائدة .

وعد هذا الحكم أصلاً من أصول الفهم أول أركان البيعة العشرة . قال رحمه الله :

« ٣ ـ وللإيمان الصادق ، والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة يقذفها الله فى قلب من يشاء من عبادة .

ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية ، ولا تعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه[١] .

تلك هى آراء الإمامين فى هذه المسألة ، وهو الرأى الصواب الوسط المتفق مع الأدلة الشرعية . وبهذا يكونان قد حافظا على أصالة المصدر ، وصفاء المنبع ، وسلامة المرجع ، وحمياه من كل دخيل وغريب من الخرافات والأساطير ، والخيالات والأوهام ، والظنون والأكاذيب التى يفتريها الدجاجلة والمشعوذون ... وفى نفس الوقت لم يضرا بالصالحين الصادقين المخلصين .

دور العقل :

من المسائل التى لها صلة وثيقة بمصادر الأحكام ، ومرجع

(١) مجموعة الرسائل (رسالة التعاليم) ص ٢٦٨ .

المسلم فى أمور دينه ، معرفة دور العقل ووزنه فى الشرع .

حيث غالى أناس فى العقل فجعلوه الأصل ، والشرع تابع ، وأهمل أناس العقل ولم يقيموا له وزناً .

وقد شكا التاريخ الأمة الإسلامية من هذين الصنفين .

وقد كان للإمامين الجليلين آراء التقت على الوسطية ووضع العقل فى مكانه الصحيح ، فبينا تكريم الإسلام للعقل .

ووضحا أن للعقل مجالاً قد يختص به دون الشرع .

كما أن للشرع مجالاً قد يختص به دون العقل .

وبينا أن العقل تابع للشرع موضح له ويجليه .

فكان لهذه الآراء آثارها الطيبة على الأمة ، وحلت باعتدالها مشاكل ، وهدأت نفوساً ، وهدت حيارى .

والآن مع آراء الإمامين .

رأى شيخ الإسلام :

قال شيخ الإسلام رحمه الله مبيناً وزن العقل وحدوده : « العقل شرط فى معرفة العلوم ، وكمال وصلاح الأعمال . وبه يكمل العلم والعمل .

لكنه ليس مستقلاً بذلك ؛ لكنه غريزة فى النفس ، وقوة فيها ، بمنزلة قوة البصر التى فى العين ، فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن ، كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار .

وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التى يعجز وحده عن دركها ،

وإن عزل بالكلية : كانت الأقوال والأفعال مع عدمه : أموراً حيوانية ، قد يكون فيها محبة ووجد وذوق ، كما قد يحصل للبهيمة .

فالأحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصة .

والأقوال المخالفة للعقل باطلة .

والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه ، لم تأت بما يعلم بالعقل إمتناعه .

لكن المسرفون فيه قضوا بوجوب أشياء وجوازها ، وامتناعها ، لحجج عقلية بزعمهم اعتقدوها حقاً ، وهى باطل ، وعارضوا بها النبوات وما جاءت به .

والمعرضون عنه صدقوا بأشياء باطلة ، ودخلوا فى أحوال ، وأعمال فاسدة ، وخرجوا عن التمييز الذى فضل الله به بنى آدم على غيرهم .

وقد يقترب من كل من الطائفتين بعض أهل الحديث :

تارة بعزل العقل عن محل ولايته .

وتارة بمعارضة السنن به(١) .

رأى الإمام الشهيد :

ويقول الإمام الشهيد جامعاً الخلاصة على عادته بأسلوب

(١) الفتاوى : جـ ٣ ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

موجز :

« ١٨ ــ والإسلام يحرر العقل ، ويحث على النظر فى الكون ، ويرفع قدر العلم والعلماء ، ويرحب بالصالح النافع من كل شىء ، و « الحكمة ضالة المؤمن أنىّ وجدها فهو أحق الناس بها » .

« ١٩ ــ وقد يتناول كل من النظر الشرعى والنظر العقلى مالا يدخل فى دائرة الآخر .

ولكنهما لن يختلفا فى القطعى .

فلن تصطدم حقيقة علمية صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة .

ويؤوّل الظنى منهما ليتفق مع القطعى .

فإن كانا ظنيين ، فالنظر الشرعى أولى بالاتباع حتى يثبت العقلى أو ينهار »(١) .

بهذا أخى الكريم يتجلى لنا تماماً اتفاق الإمامين والتقاؤهما على أن المرجع الأصيل للمسلم فى كل شئون حياته هو كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وما وافقهما أخذ ، وما خالفهما ترك .

(١) مجموعة الرسائل (رسالة التعاليم) ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

الحرص على
الوحدة والأخوة والجماعة

الحرص على
الوحدة والأخوة والجماعة

لقد أدرك كلا الإمامين أهمية الأخوة وعظم مكانتها ، وسمو منزلتها فى هذا الدين .

فهى قمة شامخة تعلو ولا تنال وأساس متين لا يهدم .

ولقد تجلى حرص الإمامين رحمة الله عليهما على تأليف القلوب وجمعها من خلال حياتهما ومعاملاتهما ومؤلفاتهما .

الخلاف الفقهى لا يفرق :

لقد أكد كلا الإمامين هذه القضية ، أنه لا ينبغى أن يكون الخلاف فى الأمور الفقهية مدعاة للفرقة العداء ، وإثارة الشحناء والبغضاء .

أقوال شيخ الإسلام :

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه :

« وأما الاختلاف فى الأحكام فأكثر من أن ينضبط ولو كان كلما اختلف مسلمان فى شىء تهاجرا لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة »[1] .

ولقد وقعت بين المسلمين نزاعات شديدة حول بعض المسائل الفقهية ، وقد نتج عن ذلك فرقة واختلاف ، وتقاطع وتدابر ، وتراشق بالعيوب والانتقاص .

وقد استنكر شيخ الإسلام على المختلفين هذا المسلك المشين الذى لا يتفق مع روح الإسلام المجمعة لا المفرقة ، المؤلفة لا المنفرة .

وقد كان ينبه إلى ذلك فى العديد من كتاباته عند تعرضه لمسائل الخلاف الفقهى .

فمن ذلك قوله :

---

(١) الفتاوى : جـ ٢٤ ص ١٧٣ .

« فأما صفة الصلاة : فمن شعائرها مسألة البسملة ، فإن الناس اضطربوا فيها نفياً وإثباتاً :

فى كونها آية من القرآن ، وفى قراءتها .

وصنفت من الطرفين مصنفات ، يظهر فى بعض كلامها نوع جهل وظلم ، مع أن الخطب فيها يسير .

وأما التعصب لهذه المسائل ونحوها فمن شعائر الفرقة والاختلاف الذى نهينا عنه .

إذ الداعى لذلك هو ترجيح الشعائر المفرقة بين الأمة وإلا فهذه المسائل من أخف مسائل الخلاف جداً ، لولا مايدعو الشيطان من إظهار شعار الفرقة »(١) .

إن استنكار الشيخ جلى على المتعصبين لمسائل الخلاف ، المهولين من شأنها لدرجة استدعائها لتفريق الأمة وجعل مسلك المتعصبين المهولين من معالم الاستجابة للشيطان وتحقيق أمنيته سواء شعروا بذلك أم لم يشعروا .

ترك المستحبات لتأليف القلوب :

لقد بين شيخ الإسلام عظم مكانة تأليف القلوب ، وضرورة الحرص على ذلك ولو بترك المستحبات ، لأن فى تأليف القلوب مصلحة عظمى للإسلام ، فبه يقوى ويتماسك .

(١) القواعد النورانية الفقهية : ص ٤٢ .

وقد كان هذا الحرص على ألفة القلوب هو منهج الرسول الأكرم ﷺ فى دعوته ومعاملته مع الناس وقد أخذ الصحابة الكرام رضى الله عنهم هذا المنهج عن رسول الله ﷺ .

يوضح ابن تيمية ذلك عند تعرضه لمسألة فقهية ألا وهى حكم تلاوة البسملة فى الصلاة .

فعرض أقوال العلماء فى ذلك ثم قال :

« ويستحب للرجل أن يقصد إلى تأليف هذه القلوب بترك هذه المستحبات ، لأن مصلحة التأليف فى الدين أعظم من مصلحة فعل مثل هذا .

كما ترك النبى ﷺ تغيير بناء البيت ، لما رأى فى إبقائه من تأليف القلوب .

وكما أنكر ابن مسعود على عثمان إتمام الصلاة فى السفر ثم صلى خلفه متماً . وقال : الخلاف شر »(١) .

الخلاف فى فروع العقيدة لا يفرق :

لقد اتفق كلا الإمامين رحمهما الله على أن الخلاف فى مسائل العقيدة الخفية الدقيقة الخفيفة ينبغى ألا يحدث بين المسلمين فرقة ونفرة .

ولا يجوز أن تتخذ شعار محنة وفتنة . بل ينبغى للألسنة أن

(١) القواعد النورانية الفقهية : ص ٤٣ ، ٤٤ .

تكف ، وللقلوب أن تجتمع ، وللنفوس أن تصفى .

وقد بين شيخ الإسلام هذا الأمر « فى رسالته إلى أه البحرين »[1] عندما اختلفوا فى مسألة فرعية من مسائل العقيدة وه « رؤية الكفار ربهم » .

وقد اختلفوا فى ذلك اختلافاً كبيراً ، فرق جمعهم ، وشت شملهم ، وأوغر صدورهم ، حتى تهاجروا وتركوا الصلاة خلف بعضهم بعضاً ، فكانت محنة ، وكانت مأساة ، دعت شيخ الإسلا إلى الأسف على حالهم فبادر بالكتابة إليهم ليجتمع شملهم وينتظ أمرهم .

وبين أن الأمر فى ذلك خفيف هين وأن الصحابة ومن تبعه كانوا يختلفون فى بعض المسائل التى هى أكبر من هذا ، مع بقا أخوتهم ، وألفة قلوبهم ، وصفاء نفوسهم ، ودوام محبتهم ، والاحترا المتبادل ...

فقال شيخ الإسلام عليه رحمة الله :

« والذى أوجب هذا (كتابة الرسالة) أن وفدكم حدثونا بأشيا من الفرقة والاختلاف بينكم ، حتى ذكروا أن الأمر آل إلى قريب المقاتلة وذكروا أن سببَ ذلك الاختلافُ فى « رؤية الكفار ربهم » وماكنا نظن أن الأمر يبلغ بهذه المسألة إلى هذا الحد .

فالأمر فى ذلك خفيف .

---

(١) أنظر مجموع الفتاوى : جـ ٦ ص ٤٨٥ : ٥٠٦ .

وإنما المهم الذى يجب على كل مسلم اعتقاده :

أن المؤمنين يرون ربهم فى الدار الآخرة فى عرصة القيامة وبعدما يدخلون الجنة[1] .

وأخذ يعرض المسألة وذكر الآراء فيها والراجح منها ثم قال :

« فبالجملة فليس مقصودى بهذه الرسالة الكلام المستوفى لهذه المسألة ، فإن العلم كثير ، وإنما الغرض بيان أن هذه المسألة ليست من المهمات التى ينبغى كثرة الكلام فيها ، وإيقاع ذلك إلى العامة والخاصة حتى يبقى شعاراً ، ويوجب تفريق القلوب وتشتت الأهواء »[2] .

اختلاف الصحابة ومن بعدهم دون تهاجرهم :

ثم ضرب أمثلة من السلف الصالح رضوان الله عليهم تبين أن لاختلاف فى دقائق العقيدة وفروعها لم يفرق قلوبهم ولم يحدث بينهم تقاطعاً ولا تهاجراً .

فقال رحمه الله :

« وليست هذه المسألة فيما علمت مما يوجب المهاجرة والمقاطعة ، فإن الذين تكلموا فيها قبلنا عامتهم أهل سنة واتباع .

وقد اختلف فيهامن لم يتهاجروا ويتقاطعوا .

---

(١) الفتاوى : جـ ٦ ص ٤٨٥ .

(٢) الفتاوى : جـ ٦ ص ٥٠٢ .

كما اختلف الصحابة رضى الله عنهم والناس بعدهم فى رؤية النبى ﷺ ربه فى الدنيا ، وقالوا فيها كلمات غليظة ، كقول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها :

« من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية »[1] .

ومع هذا فما أوجب هذا النزاع تهاجراً ولا تقاطعاً .

وكذلك ناظر الإمام أحمد أقواماً من أهل السنة فى « مسألة الشهادة للعشرة بالجنة » حتى آلت المناظرة إلى ارتفاع الأصوات ، وكان أحمد وغيره يرون الشهادة ، ولم يهجروا من امتنع من الشهادة .

إلى مسائل نظير هذه كثيرة »[2] .

ثم ختم شيخ الإسلام رسالته بجملة آداب ينبغى للدعاة الإصغاء إليها ، ومراعاتها فى دعوتهم فقال رحمه الله :

« وهنا آداب يجب مراعاتها :

منها : أن من سكت عن الكلام فى هذه المسألة (رؤية الكفار) ولم يدع إلى شىء ، فإنه لا يحل هجره ، وإن كان يعتقد أحد الطرفين ، فإن البدع التى هى أعظم منها لا يهجر فيها إلا الداعية دون الساكت ، فهذه أولى .

---

(١) (خ / ٣٢٣٤) (م / ١٧٧) .

(٢) الفتاوى : جـ ٦ ص ٥٠٢ ، ٥٠٣ .

ومن ذلك : أنه لا ينبغى لأهل العلم أن يجعلوا هذه المسألة محنة وشعاراً يفضلون بها بين إخوانهم وأضدادهم فإن مثل هذا مما يكرهه الله ورسوله .

وكذلك : لا يفاتحوا فيها عوام المسلمين الذين هم فى عافية وسلام عن الفتن .

ولكن إذا سئل الرجل عنها ، أو رأى من هو أهل لتعريفه ذلك ألقى إليه مما عنده من العلم ما يرجو النفع به ، بخلاف الإيمان بأن المؤمنين يرون ربهم فى الآخرة ، فإن الإيمان بذلك فرض واجب لما قد تواتر فيها عن النبى ﷺ وصحابته وسلف الأمة »[1] .

هذا نموذج تجلى من خلاله حرص شيخ الإسلام رحمه الله على ألفة القلوب واجتماعها ، ونهيه عن تفرقها وتنافرها بسبب الخلاف حول مسائل فرعية من مسائل العقيدة .

وهو يضع بذلك أصلاً من أصول الدعوة ينبغى على الدعاة مراعاته ، وهم يسيرون فى طريق دعوتهم وعليهم أن يحسنوا تطبيقه حتى لا يقعوا فى الإفراط أو التفريط .

وسأجلى هذه النقطة فى نهاية البحث بمشيئة الله تعالى .

---

(١) الفتاوى : جـ ٦ ص ٥٠٣ ، ٥٠٤ .

الإمام الشهيد :

والآن أنتقل إلى الحديث عن الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله وبيان حرصه على الأخوة وألفة القلوب .

ليتجلى لنا التقاء الإمامين ــ شيخ الإسلام ، والإمام الشهيد ــ على طريق الدعوة .

مظاهر الحرص على الأخوة :

لقد تجلى حرص الإمام الشهيد على الأخوة والحب فى الله أجلى بيان وأوضحه ، ويظهر ذلك فيما يلى :

عنوان الجماعة « الإخوان المسلمون » .

جعل الأخوة من أركان البيعة العشرة الواردة فى رسالة التعاليم وهى :

الفهم ، والإخلاص ، والعمل ، والجهاد ، والتضحية الطاعة ، الثبات ، التجرد ، الأخوة ، الثقة .

هى أساس نظام الأسرة التى هى اللبنة الأولى للجماعة . وأركان هذه الأسرة التى تعمل لتحقيقها ثلاثة هى : التعارف ، والتفاهم ، والتكافل .

لا تخلو رسالة من رسائل الإمام الشهيد إلا ويذكر الأخوة .

الخلاف الفقهى لا يفرق :

التقى الإمام الشهيد مع شيخ الإسلام فى أن الخلاف الفقهى لا

ينبغى أن يفرق المسلمين .

فقال الإمام الشهيد رحمه الله فى ركن الفهم من رسالة التعاليم :

« ٨ ــ والخلاف الفقهى فى الفروع لا يكون سبباً للتفرق فى الدين ، ولا يؤدى إلى خصومة ولا بغضاء ، ولكل مجتهد أجره ، ولا مانع من التحقيق العلمى النزيه فى مسائل الخلاف فى ظل الحب فى الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة ، من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب »(١) .

اختلف الصحابة ولم يتفرقوا :

وبين الإمام الشهيد أن الصحابة رضوان الله عليهم قد اختلفوا فى الفروع الفقهية من غير أن يتفرق جمعهم أو توغر صدورهم ، فلماذا نمزق نحن رباط الأخوة ؟

واعتذر لمن يخالفونه فى الفقهيات حرصاً على هذا الرباط الربانى فقال رحمه الله :

« نلتمس العذر كل العذر لمن يخالفوننا فى بعض الفرعيات ، ونرى أن هذا الخلاف لا يكون أبداً حائلاً دون ارتباط القلوب وتبادل الحب والتعاون على الخير .

وأن يشملنا وإياهم معنى الإسلام السابغ بأفضل حدوده وأوسع مشتملاته .

---

(١) مجموعة الرسائل : ص ٢٦٩ .

ألسنا مسلمين وهم كذلك ؟

وألسنا نحب أن تنزل على حكم اطمئنان نفوسنا وهم يحبون ذلك ؟

وألسنا مطالبين بأن نحب لإخواننا مانحب لأنفسنا ؟ ففيم الخلاف إذن ؟

ولماذا لا يكون رأينا مجالاً للنظر عندهم كرأيهم عندنا ؟

ولماذا لانتفاهم فى جو الصفاء والحب إذا كان هناك مايدعو إلى التفاهم ؟

هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ كان يخالف بعضهم بعضاً فى الإفتاء ، فهل أوقع ذلك اختلافاً بينهم فى القلوب ؟

وهل فرق وحدتهم أو فرق رابطتهم ؟

اللهم لا . وما حديث صلاة العصر فى قريظة ببعيد .

وإذا كان هؤلاء قد اختلفوا وهم أقرب الناس عهداً بالنبوة وأعرفهم بقرائن الأحكام .

فما بالنا نتناحر فى خلافات تافهة[1] لا خطر لها ؟

وإذا كان الأئمة وهم أعلم الناس بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ قد اختلف بعضهم مع بعض ، وناظر بعضهم بعضاً فلم لا يسعنا ماوسعهم ؟ »[2] .

---

(١) تافهة : يسيرة هينة .

(٢) مجموعة الرسائل (دعوتنا) ص ٢٤ : ٢٥ .

الإيمان والإخاء لا المال والقهر :

وفى مكان آخر يبين الإمام الشهيد أن الوسيلة القويمة الوحيدة لتحقيق أهداف ... الإخوان المسلمين .

بدْءاً من الفرد المسلم وانتهاءً بدولة الإسلام العالمية .

هذه الوسيلة ليست المال والقوة إنما هى الإيمان والإخاء فيقول رحمه الله :

« أما الوسيلة إلى تحقيق ذلك فليست المال ؛ والتاريخ منذ عرف إلى الآن يحدثنا أن الدعوات لا تقوم أول أمرها بالمال ، ولا تنهض به بحال .

فهى تحتاج إلى مال فى بعض مراحل طريقها ولكن محال أن يكون قوامها ودعامتها ، فرجال الدعوات وأنصارها هم دائماً المقلون من هذا المال ، وسل التاريخ ينبئك .

وليست الوسيلة القوة كذلك :

فالدعوة الحقة إنما تخاطب الأرواح أولاً ، وتناجى القلوب وتطرق مغاليق النفوس ، ومحال أن تثبت بالعصا أو أن تصل إليها على شبا الأسنة والسهام .

ولكن الوسيلة فى تركيز كل دعوة وثباتها معروفة معلومة مقروءة لكل من له إلمام بتاريخ الجماعات ، وخلاصة ذلك فى جملتين :

ـــ إيمان وعمل . ـــ ومحبة وإخاء .

ماذا فعل رسول الله ﷺ فى تركيز دعوته فى نفوس الرعيل الأول من أصحابه أكثر من أنه دعاهم إلى الإيمان والعمل ، ثم جمع قلوبهم على الحب والإخاء »[1] .

« لقد آمنوا أعمق الإيمان وأقواه وأقدسه وأخلده بالله ونصره وتأييده :

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾[2] .

وبالقائد وصدقه وإمامته :

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾[3] .

وبالمنهاج ومزيته وصلاحيته :

﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ﴾[4] .

وبالإخاء وحقوقه وقدسيته :

﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾[5] .

وأخذ رحمه الله يبين بقية عدة النصر والتمكين[6] .

---

(١) دعوتنا فى طور جديد ص ١٢٣ .

(٢) آل عمران : ١٦٠ .

(٣) الأحزاب : ٢١ .

(٤) المائدة : ١٥ ، ١٦ .

(٥) الحجرات : ١٠ .

(٦) مجموعة الرسائل (الإخوان المسلمون تحت راية القرآن) ص ١٠٠ : ١٠١ .

ولقد أبرز الإمام الشهيد مكانة الأخوة ، وسمو منزلتها ونبه الأذهان الذاهلة ، والقلوب الغافلة عن هذا الأصل الأصيل فى هذا الدين .

الإخـــاء من عدتنا :

« بين الإمام الشهيد أن غاية الإخوان المسلمين هى إيجاد

الفرد المسلم

والبيت المسلم

والشعب المسلم

والحكومة المسلمة

والدولة التى تقود الدول الإسلامية ، وتضم شتات المسلمين وتستعيد مجدهم ، وترد عليهم أرضهم المفقودة ، وأوطانهم المسلوبة وبلادهم المغصوبة ، ثم تحمل علم الجهاد ولواء الدعوة إلى الله ، حتى تسعد العالم بتعاليم الإسلام » .

وبعد بيان هذه الغاية ، شرع فى بيان العدة اللازمة لتحقيق هذه الغاية . فقال :

« عدتنا هى سلفنا من قبل ، والسلاح الذى غزا به زعيمنا وقدوتنا محمد رسول الله ﷺ وصحابته معه العالم ، مع قلة العدد ، وقلة المورد ، وعظيم الجهد ، هو السلاح الذى سنحمله لنغزو به العالم من جديد »[1] .

---

(١) تحت راية القرآن : ١٠٠ — ١٠١ .

فاجتمعت قوة العقيدة إلى قوة الوحدة ، وصارت جماعتهم هى الجماعة النموذجية التى لابد أن تظهر كلمتها وتنتصر دعوتها وإن ناوأها أهل الأرض جميعاً .

وماذا فعل الدعاة من قبل ومن بعد أكثر من هذا ؟

ينادون بالفكرة ويوضحونها ويدعون الناس إليها ، فيؤمنون بها ويعملون لتحقيقها ويجتمعون عليها ويزدادون عدداً فتزداد الفكرة بهم ظهوراً حتى تبلغ مداها وتبتلع ما سواها .

﴿ وتلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾[١] .

قوة العقيدة ثم الإخاء ثم السلاح :

وبين رحمة الله أن الإخوان يسعون لتقوية العقيدة والإيمان ، والوحدة والإخاء ، ثم الساعد والسلاح .

وباستكمال مناصرة القوة الثلاثة هذه سيغزون كل عنيد جبار فقال الإمام الشهيد عن الإخوان :

« هم يعلمون أن أوّل درجة من درجات القوة قوة العقيدة والإيمان .

ويلى ذلك قوة الوحدة والارتباط ، ثم بعدهما قوة الساعد والسلاح . ولا يصح أن توصف جماعة بالقوة حتى تتوفر لها هذه المعانى جميعاً .

---

(١) مجموعة الرسائل (دعوة الإخوان فى طور جديد) ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

وإنها إذا استخدمت قوة الساعد والسلاح وهى مفككة الأوصال ، مضطربة النظام ، أو ضعيفة العقيدة خامدة الإيمان فسيكون مصيرها الفناء والهلاك »[١] .

---

(٢) مجموعة الرسائل (المؤتمر الخامس) ص ١٦٩ .

وبعـــد :

فتلك إشارة موجزة ظهر من خلالها التقاء الإمامين ـ شيخ الإسلام ، والإمام الشهيد ـ على الحرص على الأخوة والجماعة ، وألفة القلوب ووحدتها .

وتبين ذلك من خلال :

الإجماع على عظم مكانة الأخوة وسمو منزلتها .

أن الأخوة لا ينال منها فضلاً عن أن يهدمها الخلاف الفقهى .

أو الخلاف فى فروع العقيدة ودقائقها .

أنه يستحب ترك المستحبات التى يؤدى فعلها إلى تفريق القلوب ، وإثارة الشحناء .

وتلك لعمرى هى نظرة أولى البصائر النيرة ، والعقول الواعية التى دعا إليها القرآن ، وأكدها سيد الأنام .

فقد بين القرآن أن القتل العمد ـ وهو كبيرة من الكبائر ـ لا يحل رباط الأخوة ، ولا يفصم عراها بالكلية .

فقال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى . فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم** ﴾[1] .

---

(١) البقرة : ١٧٨ .

ولما هاجر ﷺ من مكة إلى المدينة .

بدأ بتأسيس المسجد ثم عقد الأخوة ...

وفى المسجد تجتمع القلوب على طاعة الله ، وترتبط به سبحانه فالمسجد أيضاً جعل لتوثيق عرى الإخاء ، حيث الالتقاء والاجتماع عدة مرات على طاعة الله والخضوع له سبحانه .. وفى ذلك مافيه من ترابط القلوب ، وتصافى النفوس ، وتعانق الأرواح ، وظلال المحبة ورفرفة الرحمة .

ولا أحب أن أطيل ببيان مكانة الأخوة فى الإسلام فلذلك مقام آخر .

فلينتبه شباب الإسلام والعاملون فى الدعوة إلى الله إلى هذا الأصل العظيم : الأخوة والجماعة ، وليحرصوا عليه حرصهم على دينهم .

فبالأخوة يقوم الدين ، وبضعفهايضعف .

والإخاء أخو الإيمان .

والتفرق أخو الكفر .

﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً** ﴾[1] .

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .

التصـــوف

التصـــوف

قد كثر الكلام حول الصوفية والتصوف مابين مبالغة فى الثناء والمدح ، والذم والقدح .

حتى ضلت أفهام ، وزلت أقدام ، وضاعت الحقيقة .

فقيض الله علماء أعلاماً فبينوا الحق بميزان الشرع .

ومن هؤلاء الإمامان : شيخ الإسلام ، والإمام الشيهد فقد تعرض كلاهما للحديث عن الصوفية ، وقد التقيا فى نظرتهما . المعتدلة إلى القوم .

تلك النظرة التى تقر الحق ، وتنكر الباطل ، بلا إفراط ولا تفريط ، ولا غلو ولا تقصير . دون أن يوقعهم الرضا فى الباطل ، ولا يخرجهم الغضب عن الحق .

والآن أنقل من كلام الإمامين مايوضح التقاءهما فى النظرة والحكم المعتدل .

وسوف أعطى فكرة موجزة عن القوم وتاريخهم من خلال كتابات شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله . تتمة للبحث .

نشـأتهم :

بدأ ظهور الصوفية بالبصرة .

قال شيخ الإسلام :

« أول ماظهرت الصوفية من البصرة ، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد .

وعبد الواحد من أصحاب الحسن ، وكان فى البصرة من المبالغة فى الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك مالم يكن فى سائر الأمصار »(١) .

وقد رجح شيخ الإسلام فى سبب التسمية أنهم سموا بذلك نسبة إلى لبس الصوف .

التنازع فى الصوفية والتصوف :

لقد بدأ القوم بسلوك طريق الزهد ، واجتهدوا فى ذلك وصدرت منهم أمور لم تكن معهودة من قبل فى جيل الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان .. كالصعق عند سماع القرآن ... وغير ذلك .

وكان منهم العالم التقى ، والجاهل بدينه ، والصادق المخلص ، والكذاب المشعوذ . لذلك تنازع الناس فى ذمهم ومدحهم .

---

(١) الفتاوى : جـ ١١ ص ٦ ، ٧ .

يقول شيخ الإسلام :

« ولأجل ماوقع فى كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه تنازع الناس فى طريقهم :

فطائفة ذمت « الصوفية والتصوف » .

وقالوا : إنهم مبتدعون ، خارجون عن السنة .

ونقل عن طائفة من الأئمة فى ذلك من الكلام ماهو معروف ، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام .

وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق ، وأكملهم بعد الأنبياء »[١] .

رأى شيخ الإسلام :

بعد أن عرض شيخ الإسلام آراء الناس فى الصوفية شرع فى بيان الرأى الصواب ، المتميز بالاعتدال ، المنضبط بميزان الشرع ، فلا هوى ولا ميول .

قال رحمة الله :

« وكلا طرفى هذه الأمور ذميم .

والصواب : أنهم مجتهدون فى طاعة الله ، كما اجتهد غيرهم من أهل الطاعات .

(١) الفتاوى : جـ ١١ ص ١٨ .

ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده .

وفيهم المقتصد الذى هومن أهل اليمين .

وفى كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطىء .

وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب .

ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه »[١] .

حقيقة التصوف طيبة :

بين شيخ الإسلام أن أصل التصوف وحقيقته لا غبار عليها ، فإن أصله الزهد ، والعبادة ، وتزكية النفس والصدق والإخلاص ...

فقال رحمه الله :

« التصوف عندهم له حقائق وأحوال معروفة قد تكلموا فى حدوده وسيرته وأخلاقه .

كقول بعضهم :

الصوفى : من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، واستوى عنده الذهب والحجر .

التصوف : كتمان المعانى ، وترك الدعاوى . وأشباه ذلك .

وهم يسيرون بالصوفى إلى معنى الصديق »[١] .

(١) الفتاوى : جـ ١١ ص ١٨ .

(١) الفتاوى : جـ ١١ ص ١٦ ، ١٧ .

اختلاط التصوف :

عرفنا أن أصل التصوف وحقيقته طيبة لأنها تقوم على أمور مقررة فى الإسلام المتمثل فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

غير أنه قد انتسب إلى التصوف أناس لهم عقائد غريبة ، وأغراض مريبة ، فدسوا فيه من الخرافات والأباطيل ما استنكره شيوخ الصوفية الصادقون .

يقول شيخ الإسلام :

« قد انتسب إلى الصوفية طوائف من أهل البدع والزندقة ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم :

كالحلاج مثلاً :

فإن أكثر مشائخ الطريق أنكروه ، وأخرجوه عن الطريق .

مثل الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره .

كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى فى طبقات الصوفية وذكره الخطيب أبو بكر الخطيب فى تاريخ بغداد(١) .

عندئذ اجتمع فى التصوف الحقُّ والباطلُ ، والهدى والضلال ، واختلطت فيه البدعة بالسنة ، والجهل بالعلم .

---

(١) الفتاوى : جـ ١١ ص ١٨ .
وانظر طبقات الصوفية / لأبى عبدالرحمن السلمى ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ وتاريخ بغداد / للخطيب البغدادى / جـ ٨ ص ١١٢ : ١٤١ الترجمة رقم ٤٢٣٢ .

وأدخلت فيه آراء فلسفية غريبة .

وقد لاقى هذا التصوف الفلسفى المنحرف إنكاراً شديداً من شيوخ المتصوفة المستقيمين .

هنالك أصبح التصوف نوعين بارزين :

١ ـــ تصوف أهل العلم والاستقامة .

« كالفضيل بن عياض ، وإبراهيم بين أدهم ، وأبى سليمان الدارانى ، ومعروف الكرخى ،والجنيد بن محمد ، وسهل بن عبدالله التسترى وأمثالهم ـــ رضوان الله عليهم أجمعين »(١) .

٢ ـــ تصوف الفلسفة والزندقة والجهل والابتداع الذى تمثل فى : وحدة الوجود ، والحلول والاتحاد ، ودعاء الأموات ، والنذور لهم ، وادعاء معرفة الغيب .. وأمثال هذه الأمور المنافية للإسلام الصافى النقى .

وكلا النوعين من التصوف موجود اليوم بنسبة متفاوتة من بلد إلى بلد ، ومن جماعة إلى جماعة بل فى الطريقة الواحدة . والنوع الثانى هو الأغلب والأكثر انتشاراً .

موقف الإمام الشهيد :

لقد وقف الإمام الشهيد من التصوف والصوفية موقفاً متوسطاً عدلاً : فأثنى على محاسن التصوف ومدحها .

---

(١) الفتاوى : جـ ١١ ص ٢٣٣ .

وذم مساوىء التصوف وأنكرها .

وكان ميزانه فى ذلك : كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وهو الميزان العدل الذى يعطى كل ذى حق حقه .

وقد أدرك الإمام الشهيد مدى ماغلب على التصوف من انحراف وانحطاط وبعد عن حقيقة الإسلام مما أثر على حياة الأمة الإسلامية أسوأ الأثر فمكن الطغيان من الانتشار والإفساد وانتشرت فى الأمة مظاهر الضعف والفقر والتخلف والذلة والجهل والخرافة ... فتضررت الأمة فى دينها ودنياها أبلغ الضرر .

أدرك الإمام الشهيد ذلك فأخذ فى العلاج واستخدم وسيلتين :

الأولى : ذكر محاسن التصوف الأول الأصيل من خلق فاضل وزهد خالص ، وجهاد صادق ...

الثانى : ذم مساوىء التصوف من ابتداع فى الدين وخروج عن آداب الإسلام وحقائقه ...

وفى ذلك تشجيع لهم ، وأخذ بأيديهم ليخرجوا من المساوىء ويسارعوا إلى محاسن التصوف التى يقرها الإسلام .

والعبرة بالمضامين لا العناوين ، بالمعانى لا المبانى ، بالحقائق لا الألفاظ .

والآن أشرع فى إيضاح موقف الإمام الشهيد رحمه الله .

ذم المساوىء :

نظر الإمام الشهيد إلى التصوف الموجود ، فوجد فيه كثيراً من العيوب والمساوىء ، فأخذ يذمها ويعرض بها ليهدمها ، ويقيم بدلاً منها محاسن الإسلام .

إسلام شامل لا روحانية وكفى :

من الأمور السيئة التى لحقت بالتصوف وأهله وغلبت عليهم هى حصرهم للإسلام فى دائرة محدودة محصورة فى العبادات والروحانيات وكفى .

أما شمول الإسلام فلا وجود له عند كثير منهم .

أدرك الإمام الشهيد هذا فأخذ يعرض بهذه المساوىء فقال رحمه الله .

« اسمع ياأخى : دعوتنا دعوة أجمع ماتوصف به أنها « إسلامية » ولهذه الكلمة معنى واسع غير ذلك المعنى الضيق الذى يفهمه الناس .

فإنا نعتقد أن الإسلام معنى شامل ينتظم شئون الحياة جميعاً ، ويفتى فى كل شأن منها ، ويضع له نظاماً محكماً دقيقاً ، ولا يقف مكتوفاً أمام المشكلات الحيوية والنظم التى لابد منها لإصلاح الناس .

فهم بعض الناس خطأ أن الإسلام مقصور على ضروب من العبادات أو أوضاع من الروحانية . وحصروا أنفسهم وأفعالهم فى هذه الدوائر الضيقة من دوائر الفهم المحصور .

ولكنا نفهم الإسلام على غير هذا الوجه فهماً فسيحاً واسعاً ينتظم شئون الدنيا والآخرة ، ولسنا ندعى هذا إدعاءاً أو نتوسع فيه من أنفسنا ، وإنما هو مافهمناه من كتاب الله وسيرة المسلمين الأولين .

فإن شاء القارىء أن يفهم دعوة الإخوان بشىء أوسع من كلمة « الإسلامية » فليمسك بمصحفه وليجرد نفسه من الهوى والغاية ، ثم يتفهم ماعليه القرآن .

فسيرى فى ذلك دعوة الإخوان[١] .

لسنا جماعة دراويش :

وفى مقام آخر يعرض الإمام الشهيد بالتصوف المذموم وينكر على أهله اقتصارهم على جانب من جوانب الإسلام وعدم أخذهم له بشموله ، كما دعا المولى سبحانه وأمر فقال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾[١] ، ﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾[٢] .

قال الإمام الشهيد : « أيها الشباب » :

يخطىء من يظن أن جماعة الإخوان المسلمين « جماعة دراويش »

(١) مجموعة الرسائل (دعوتنا) ص ١٦ .

(١) البقرة : ٢٠٨ .

(٢) الأنعام : ١٦٢ : ١٦٣ .

قد حصروا أنفسهم فى دائرة ضيقة من العبادات الإسلامية كل همهم صلاة وصوم وذكر وتسبيح .

فالمسلمون الأولون لم يعرفوا الإسلام بهذه الصورة ولم يؤمنوا به على هذا النحو ، ولكنهم آمنوا به عقيدة وعبادة ، ووطناً وجنسية ، وخلقاً ومادة ، وثقافة وقانوناً ، وسماحة وقوة ، واعتقدوه نظاماً كاملاً يفرض نفسه على كل مظاهر الحياة ، وينظم أمر الدنيا كما ينظم الآخرة .

اعتقدوه نظاماً عملياً وروحياً معاً فهو عندهم : دين ودولة ، ومصحف وسيف .

وهم مع هذا لا يهملون أمر عبادتهم ولا يقصرون فى أداء فرائضهم لربهم .

يحاولون إحسان الصلاة ، ويتلون كتاب الله ، ويذكرون الله تبارك وتعالى على النحو الذى أمر به ، وفى الحدود التى وضعها لهم ، فى غير غلو ولا سرف ، فلا تنطع ولا تعمق ، وهم أعرف بقول رسول الله ﷺ .

« إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى »[١] .

وهم مع هذا يأخذون من دنياهم بالنصيب الذى لا يضر بآخرتهم ، ويعلمون قول الله تبارك وتعالى :

(١) الزهد لابن المبارك رقم ١٣٣٤ تحقيق حبيب الرحمن الأعظمى .

﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾[1] وإن الإخوان ليعلمون أن خير وصف لخير جماعة هو وصف أصحاب رسول الله ﷺ : « رهبان فى الليل فرسان فى النهار » .

وكذلك يحاولون أن يكونوا والله المستعان »[2] .

لا استعانة بالمقبورين :

انتقد الإمام الشهيد التصوف المذموم وأهله لاقتصارهم على جانب من جوانب الإسلام الشامل الكامل .

ثم أخذ ينقى الجانب الذى اقتصروا عليه من الشوائب التى اختلطت به ، وراح ينتقد هذه المساوىء بحسم ولطف ، وجدية ورحمة .

فنبه على هذه المساوىء فى بنود الفهم أحد أركان البيعة العشرة لينأى بدعوة الإخوان عنها .

فقال رحمه الله :

« ٤ ـ والتمائم والرقى والودع والرمل والمعرفة والكهانة وادعاء معرفة الغيب ، وكل ماكان من هذا الباب منكر تجب محاربته إلا ماكان آية من قرآن أو رقية مأثورة »[3] .

---

(١) الأعراف : ٣٢ .

(٢) مجموعة الرسائل (إلى الشباب) ص ٨٧ : ٨٨ .

(٣) مجموعة الرسائل (رسالة التعاليم) ص ٢٦٨ : ٢٧٠ .

وقال :

« ١٤ ـ وزيارة القبور أياً كانت سنة مشروعة بالكيفية المأثورة .

ولكن الاستعانة بالمقبورين أياً كانوا ونداءهم لذلك وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد والنذر لهم وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والتمسح بها والحلف بغير الله وما يلحق بذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها ، ولا نتأول لهذه الأعمال سداً للذريعة »[1] .

تلك بعض أقوال الإمام الشهيد التى توضح موقفه من التصوف المذموم وأهله ، وانتقاده لهم ، وإنكاره عليهم وتحلى ذلك فى نقطتين : (١) حصر الإسلام فى دائرة محدودة ، (٢) وإنكار المبتدعات التى أدخلوها فى الدين والدين منها براء .

ونلاحظ هنا أمراً علماً له علاقة بفقه الدعوة وهو : أن الإمام الشهيد كان يعرض بالتصوف المذموم وأهله دون أن يذكر الاسم الصريح .

وهذا تخلق بأدب النبوة . فقد قال ﷺ فى معرض الانتقاد والذم : « ما بال أقوام يقولون : كذا وكذا »[2] اكتفاءً بذكر المرض وعلاجه ، وستراً للأشخاص ليكون ذلك أدعى لقبول النصح :

---

(١) مجموعة الرسائل (رسالة التعاليم) ص ٢٦٨ : ٢٧٠ .

(٢) البخارى (٥٠٦٣) ، مسلم (١٤٠١) .

وإصلاح العيب بسهولة ويسر .

أما عند ذكر المحاسن فإن الإمام الشهيد يصرح بالاسم إيناساً للنفس ، وحفزاً لها وتشجيعاً على السعى للتخلق بالمحاسن والمحافظة عليها والثبات عليها والازدياد منها .

الثناء على المحاسن :

عرفنا فيما سبق أن التصوف مر بمراحل تاريخية كما بين شيخ الإسلام ابن تيمية .

فبدأ بالزهد والتقشف وتصفية النفس والسمو بها عن الخلود إلى الأرض ، والركون إلى الدنيا ...

ثم اختلط بالفلسفات والبدع والجهالات والخرافات . فصار التصوف قسمين :

قسم يستحق المدح وهو ما وافق الكتاب والسنة .

وقسم يستحق الذم وهو ما خالف الكتاب والسنة .

فلا الثناء المطلق صحيح ، ولا الذم المطلق صحيح . وقد مربنا موقف الإمام الشهيد من التصوف المذموم وأهله وإنكاره عليهم .

والآن أذكر موقفه من التصوف الأصيل الموافق للكتاب والسنة وثناءه عليه .

حقيقـة صوفيـة :

لقد أثنى الإمام الشهيد على الصوفية باعتبار معانيها الصحيحة

الموافقة للكتاب والسنة اللذين يوزن بهما أى أمر شرعى فما وافقهما قبل ولا يلتفت إلى اسمه . وما خالفهما رفض وإن سمى بأفضل الأسماء .

على هذا خرج الثناء . فقد بين رحمه الله أن فكرة الإخوان المسلمين تضم كل المعانى الإصلاحية نتيجة الفهم الشامل للإسلام حيث جمعت من كل منهج وفكرة خير ما عندها .

فقال رحمه الله :

« وتستطيع أن تقول ولا حرج عليك : إن الإخوان المسلمين :

١ ـ دعوة سلفية : لأنهم يدعون إلى العودة بالإسلام إلى معينه الصافى من كتاب الله وسنة رسوله .

٢ ـ وطريقة سنية : لأنهم يحملون أنفسهم على العمل بالسنة المطهرة فى كل شىء ، وبخاصة فى العقائد والعبادات ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً .

٣ ـ وحقيقة صوفية : لأنهم يعلمون أن أساس الخير طهارة النفس ، ونقاء القلب ، والمواظبة على العمل . والإعراض عن الخلق ، والحب فى الله والارتباط على الخير .

٤ ـ وهيئة سياسية : ......

٥ ـ وجماعة رياضية : ......

٦ ـ ورابطة علمية ثقافية : ......

٧ ــ وشركة اقتصادية : ....

٨ ــ وفكرة اجتماعية : ....(١)

هكذا أثنى الإمام الشهيد على مافى التصوف من الخير حيث طهارة النفس ، ونقاء القلب ، والإخلاص والتعفف ...

واعتبر هذه المعانى جزءً أصيلاً من فكرة دعوته لاتفاقها مع كتاب الله وسنة رسوله .

وقد ذكر الثناء على الصوفية ضمن صفوة من الأفكار الأخرى (السلفية ، والسنية ...) .

ليوضح أن الثناء ليس مطلقاً دائماً بل مقيد بصفوة هذه الأفكار أيضاً وفى ذلك مزيد من الإيضاح ، ورفع للالتباس عن بعض الناس ، خصوصاً بعد ذكر المعنى الذى قصد به الثناء .

الصوفية مجاهدون :

وقد أثنى الإمام الشهيد على الصوفية فى مقام آخر ، حيث ذكر ماقدمه بعض شيوخهم من نماذج تحتذى فى الجهاد فى سبيل الله .

وهذا فضل قد شهده التاريخ فى بعض فتراته فلا يسع أحد إنكاره ، اللهم إلا من كابر وعاند .

قال رحمه الله :

---

(١) مجموعة الرسائل (المؤتمر الخامس) ص ١٥٦ : ١٥٧ .

« ولعل من تمام هذا البحث أن أذكر لك أن المسلمين فى أى عصر من عصورهم ، قبل هذا العصر المظلم الذى ماتت فيه نخوتهم ، لم يتركوا الجهاد ، ولم يفرطوا فيه حتى :

علماؤهم والمتصوفة منهم والمحترفون وغيرهم . فكانوا جميعاً على أهبة الاستعداد : كان عبدالله بن المبارك الفقيه الزاهد متطوعاً فى أكثر وقته بالجهاد وكان عبد الواحد بن زيد الصوفى الزاهد كذلك ، وكان شقيق البلخى شيخ الصوفية فى وقته يحمل نفسه وتلامذته على الجهاد .

وكان البدر العينى شارح البخارى الفقيه المحدث يغزو سنة ويدرس العلم سنة ، ويحج سنة .

وكان القاضى أسد بن الفرات المالكى أميراً للبحر فى وقته ، وكان الإمام الشافعى يرمى عشرة ولا يخطىء .

كذلك كان السلف رضوان الله عليهم ، فأين نحن من هذا التاريخ ؟ »(١) .

ومن أول هؤلاء الذين عرفت عنهم هذه الدعوة ــ الإمام الواعظ الجليل ــ الحسن البصرى ، وتبعه على ذلك كثير من أضرابه الدعاة الصالحين ، فكانت طائفة فى الناس معروفة بهذه الدعوة إلى ذكر الله واليوم الآخر ، والزهادة فى الدنيا ، وتربية النفوس على طاعة الله وتقواه .

---

(١) مجموعة الرسائل (رسالة الجهاد) ص ٢٦٠ .

وطرأ على هذه الحقائق ماطرأ على غيرها من حقائق المعارف الإسلامية ، فأخذت صورة العلم الذى ينظم سلوك الإنسان ويرسم له طريقاً من الحياة خاصاً : مراحله الذكر والعبادة ومعرفة الله ، ونهايته الوصول إلى الجنة ومرضاة الله .

وهذا القسم من علوم التصوف ، وأسميه « علم التربية والسلوك » لاشك أنه من لب الإسلام وصميمه ، ولا شك أن الصوفية قد بلغوا به مرتبة من علاج النفوس ودوائها ، والطب لها والرقى بها ، لم يبلغ إليها غيرهم من المربين .

ولا شك أنهم حملوا الناس بهذا الأسلوب على خطة عملية من حيث أداء فرائض الله واجتناب نواهيه وصدق التوجه إليه وإن كان ذلك لم يخل من المبالغة فى كثير من الأحيان تأثراً بروح العصور التى عاشت فيها هذه الدعوات : كالمبالغة فى الصمت والجوع والسهر والعزلة ... ولذلك كله أصل فى الدين يرد إليه ؛ فالصمت أصله الإعراض عن اللغو ، والجوع أصله التطوع بالصوم ، والسهر أصله قيام الليل .

والعزلة أصلها كف الأذى عن النفس ووجوب العناية بها .. ولو وقف التطبيق العملى عند هذه الحدود التى رسمها الشارع لكان فى ذلك كل الخير .

ولكن فكرة الدعوة الصوفية لم تقف عند حد علم السلوك والتربية ، ولو وقفت عند هذا الحد لكان خيراً لها وللناس ، ولكنها جاوزت ذلك بعد العصور الأولى إلى تحليل الأذواق والمواجد ،

ومزج ذلك بعلوم الفلسفة والمنطق ومواريث الأمم الماضية وأفكارها ، فخلطت بذلك الدين بما ليس منه ، وفتحت الثغرات الواسعة لكل زنديق أو ملحد أو فاسد الرأى والعقيدة ليدخل من هذا الباب باسم التصوف والدعوة إلى الزهد والتقشف ، والرغبة فى الحصول على هذه النتائج الروحية الباهرة ، وأصبح كل مايكتب أو يقال فى هذه الناحية يجب أن يكون محل نظر دقيق من الناظرين فى دين الله والحريصين على صفائه ونقائه .

وجاء بعد ذلك دور التشكل العملى للفكرة فنشأت فرق الصوفية وطوائفهم ، كل على حسب أسلوبه فى التربية . وتدخلت السياسة بعد ذلك لتتخذ من هذه التشكيلات تكأة عند اللزوم ، ونظمت الطوائف أحياناً على هيئة النظم العسكرية ، وأخرى على هيئة الجمعيات الخاصة حتى انتهت إلى ما انتهت إليه اليوم من هذه الصورة الأثرية التى جمعت بقية ألوان هذا التاريخ الطويل ، والتى يمثلها الآن فى مصر مشيخة الطرق الصوفية ورجالها وأتباعها .

لا شك أن التصوف والطرق كانت من أكبر العوامل فى نشر الإسلام فى كثير من البلدان وإيصاله إلى جهات نائية ماكان ليصل إليها إلا على يد هؤلاء الدعاة ، كما حدث ويحدث فى بلدان إفريقيا وصحاريها ووسطها ، وفى كثير من جهات آسيا كذلك .

ولا شك أن الأخذ بقواعد التصوف فى ناحية التربية والسلوك له الأثر القوى فى النفوس والقلوب ، ولكلام الصوفية فى هذا الباب صولة ليست لكلام غيرهم من الناس ... ولكن هذا الخلط أفسد

كثيراً من هذه الفوائد وقضى عليها .

ومن واجب المصلحين أن يطيلوا التفكير فى إصلاح هذه الطوائف من الناس ، وإصلاحهم سهل ميسور ، وعندهم الاستعداد الكامل له ، ولعلهم أقرب الناس إليه لو وجهوا نحوه توجيهاً صحيحاً ، وذلك لا يستلزم أكثر من أن يتفرغ نفر من العلماء الصالحين العاملين ، والوعاظ الصادقين المخلصين لدراسة هذه المجتمعات ، والإفادة من هذه الثروة العلمية ، وتخليصها مما علق بها ، وقيادة هذه الجماهير بعد ذلك قيادة صالحة »[١] .

تنبيه :

ومن الأمور التى تجدر الإشارة إليها ، والتنبيه عليها ، أن الإمام الشهيد قد تربى فى فترة من فترات حياته فى إحدى الطرق الصوفية المعروفة باسم « الطريقة الحصافية » ويحسن بنا فى هذا المقام أن نعرف شيئاً عن ماهية هذه الطريقة ، ومدى استقامتها على منهج الله إذ العبرة بالمضمون لا العنوان .

يتحدث الإمام الشهيد عن ذكر هذه الطريقة فيقول : « أخذت أواظب على الوظيفة الرزوقية صباحاً ومساءً وزادنى بها إعجاباً أن الوالد قد وضع عليها تعليقاً لطيفاً جاء فيه بأدلة صيغها جميعاً تقريباً من الأحاديث الصحيحة وسمى هذه الرسالة : « تنوير الأفئدة الزكية بأدلة أذكار الرزوقية » ولم تكن هذه الوظيفة أكثر من آيات من

(١) مذكرات الدعوة والداعية ص ١٦ : ١٨ .

الكتاب الكريم ، وأحاديث من أدعية الصباح والمساء التى وردت فى كتب السنة تقريباً ، ليس فيهاشىء من الألفاظ الأعجمية ، أو التراكيب الفلسفية ، أو العبارات التى هى إلى الشطحات أقرب منها إلى الدعوات »[١] .

وتحدث الإمام الشهيد عن الشيخ حسنين الحصاف شيخ الطريقة الأول ، وذكر شيئاً من دعوته فقال بناء على القراءة والسؤال عنه :

« كانت دعوته مؤسسة على العلم والتعليم ، والفقه والعبادة والطاعة والذكر ، ومحاربة البدع والخرافات الفاشية بين أبناء هذه الطرق ، والانتصار للكتاب والسنة ، مما كان عليه مشايخه أنفسهم .

وكان أعظم ماأخذ بمجامع قلبى ، وملك على لبى من سيرته رضى الله عنه شدته فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وأنه كان لا يخشى فى ذلك لومة لائم ، ولا يدع الأمر والنهى مهما كان فى حضرة كبير أو عظيم .

(١) مذكرات الدعوة والداعية : ص ١١ .

ومن نماذج ذلك :

أنه زار رياض باشا حين كان رئيس الوزارة ، فدخل أحد العلماء ، وسلم على الباشا ، وانحنى حتى قارب الركوع ، فقام الشيخ مغضباً وضربه على خديه بمجمع يده ونهره بشدة قائلاً :

استقم يارجل فإن الركوع لا يجوز إلا لله ، فلا تذلوا الدين والعلم فيذلكم الله . ولم يستطع العالم ولا الباشا أن يؤاخذه بشىء ...

وزار مسجد السيد الحسين رضى الله عنه مع بعض مريديه ، ووقف على القبر يدعو الدعاء المأثور :

« السلام على أهل الديار من المؤمنين » .

فقال له بعض المريدين :

« ياسيدنا الشيخ ، سل سيدنا الحسين يرضى عنى » فالتفت إليه مغضباً وقال :

« يرضى عنا وعنك وعنه : الله » .

وبعد أن أتم زيارته شرح لإخوانه أحكام الزيارة . وأوضح لهم الفرق بين البدعية والشرعية منها ...

هذه الناحية هى التى أثارت فى نفسى أعظم معانى الإعجاب والتقدير ، وكان الإخوان يكثرون من الحديث عن كرامات الشيخ الحسية ، فلم أكن أجد لها من الوقع فى نفسى بعض ماأجد لهذه الناحية العملية .

وكنت أعتقد أن أعظم كرامة أكرمه الله بها هى هذا التوفيق لنشر دعوة الإسلام على هذه القواعد السليمة وهذه الغيرة العظيمة على محارم الله تبارك وتعالى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر »[١] .

هذا طرف مما ذكره الإمام الشهيد فى مذكراته عما قرأه ورآه بالنسبة للطريقة الحصافية .

وهى كما ترى تجمع محامد التصوف ، وتبتعد عن مساوئه .

تعليـــق :

لقد آتى الله الإمام الشهيد حكمة فى الدعوة إليه سبحانه فاستخدمها فى إصلاح كثير من العيوب ، وإرشاد كثير من الخلق دون إفراط ولا تفريط ، ولا غلو ولا تقصير . ويتجلى هذا فى موقفه من التصوف .

فقد جذبهم من الأمام من الخيط الذى يحبونه ، خيط الرقابة وصفاء النفس والروحانية حتى إذا لانوا معه وضعهم فى دائرة الخير الرحبة حيث الإسلام الشامل .

وهذا الجذب إلى الأمام كان معه دفع من الخلف بذكر مايتنافى مع الإسلام النقى وإنكاره لهذه الأمور المنافية ، فكان ذلك دافعاً لهم للنفور من هذه الأمور المنافية للإسلام .

فالذم دافع من الخلف	**والثناء جاذب إلى الأمام**
الذم موقظ من السبات	**والثناء دافع إلى الانطلاق**

(١) مذكرات الدعوة والداعية : ص ١١ : ١٣ .

وهو فى ذمه ومدحه ملتزم بمعانى الإسلام الحقيقية الصحيحة غير ملتفت للأسماء والعناوين .

العبرة بالمسميات لا الأسماء :

إن مصطلح التصوف أصبح اليوم من الألفاظ المجملة التى تضم تحتها صواباً وخطأ ، وحقاً وباطلاً لذلك وجب التفصيل قبل إصدار الحكم .

فيمدح إذا أريد به معنى صواباً وحقاً ويذم إذا أريد به معنى خطأ وباطلاً .

والميزان فى كلا الحالتين هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قال تعالى :

﴿ فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾[1] .

فلا ينبغى للعاقل أن يسقط فى شراك الألفاظ المجملة أو العناوين البراقة حتى يعرف المراد منها .

ولقد نبه الإمامان رحمهما الله إلى هذه القاعدة النفيسة .

فقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

« لفظ الفقر والتصوف قد أدخل فيه أمور يحبها الله ورسوله فتلك يؤمر بها وإن سميت فقراً أو تصوفاً لأن الكتاب والسنة إذا دل

(١) النساء : ٥٩ .

على استحبابها لم يخرج عن ذلك بأن تسمى باسم اخر .

كما يدخل فى ذلك أعمال القلوب بالتوبة والصبر والشكر والرضا والخوف والرجاء ، والمحبة والأخلاق المحمودة .

وقد أدخل فيها أمور يكرهها الله ورسوله : كما يدخل فيه بعضهم نوعاً من الحلول والاتحاد ، وآخرون نوعاً من الرهبانية المبتدعة فى الإسلام ، وآخرون نوعاً من مخالفة الشريعة ، إلى أمور ابتدعوها ، إلى أشياء أخر ، فهذه الأمور ينهى عنها بأى اسم سميت ..

والمؤمن الكيس يوافق كل قوم فيما وافقوا فيه الكتاب والسنة ، وأطاعوا فيه الله ورسوله ، ولا يوافقهم فيما خالفوا فيه الكتاب والسنة أو عصوا فيه الله ورسوله »[1] .

ويقول الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله :

« ١٦ ــ والعرف الخاطىء لا يغير حقائق الألفاظ الشرعية ، بل يجب التأكد من حدود المعانى المقصود بها ، والوقوف عندها .

كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظى فى كل نواحى الدنيا والدين .

فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء[1] .

هذا هو كلام الإمامين رحمة الله عليهما وهو لعمر الله يخرج من

(١) الفتاوى : جـ ١١ ص ٢٨ : ٢٩ .

(١) مجموعة الرسائل (رسالة التعاليم) ص ٢٧٠ .

مشكاة واحدة إنها مشكاة الحكمة والاعتدال .

فحرى بشباب الصحوة أن يقتفى آثار تلك الحكمة ويسير فى أضوائها وأنوارها .

فكثيراً مارأينا أناساً يتناحرون ، وتنشب بينهم المعارك من أجل إطلاق أسماء ونفيها .

هذا يطلقها ويريد معنى سيئاً فيذم ويقدح وذاك يطلقها ويريد معنى حسناً فيثنى ويمدح فتنشأ الخلافات ، وتوغر الصدور ، ويتسع الشقاق ، ولو عقل الفريقان لتركوا الأسماء والعناوين ، ونظروا إلى المعانى والمضامين وبذلك يزول كثير من الخصومات ، ويأتلف كثير من القلوب المتنافرة .

الخلاف الفقهى
أسبابه
ضرورته
موقفنا منه

الخـلاف الفقهـى
أسـبابه
ضرورته
موقفنا منه

لقد تعرض كلا الإمامين لموضوع شائك طالما ضلت فيه أفهام ، وزلت فيه أقدام ، وكثر بسببه الخصام ، وتفرقت قلوب .

ألا وهـو :

حقيقة الاختلاف فى الأحكام .

أو بتعبير آخر : الخلاف الفقهى فى فروع الدين ، وحدوده ، ولوازمه ...

لقد التقى كلا الإمامين فى الآراء التى ذكروها ، وكأنها درس تلقياه من أستاذ واحد فحفظاه أو كأن الإمام الشهيد تلقاه من شيخ الإسلام ثم عرضه بأسلوبه البديع المحكم فى إيجاز متقن .

المهم أن كلا الإمامين رحمة الله عليهما اتفقا تماماً فى الآراء حول هذه المسألة حيث التزما الاعتدال والسير على نهج الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان .

أسباب الخلاف عند شيخ الإسلام :

لقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أسباب الخلاف .

فى الأمور الفرعية الذى وقع فى حياة الصحابة رضوان الله عليهم أو التابعين لهم بإحسان .

وجمع هذه الأسباب فى عشرة مفصلة .

وها أنا ذا أذكرها مجملة مع تفصيل يسير .

« ١ ــ أن لا يكون الحديث قد بلغه ...

٢ ــ أن يكون الحديث قد بلغه ، لكنه لم يثبت عنده . إما لأن محدثه ، أو محدث محدثه ، أو غيره من رجال الإسناد : مجهول عنده ، أو متهم ، أو سيىء الحفظ . وإما لأنه لم يبلغه مسنداً بل منقطعاً ، أو لم يضبط لفظ الحديث مع أن ذلك الحديث قد رواه الثقات لغيره بإسناد متصل .

وهذا ... كثير جداً ، وهو فى التابعين وتابعيهم ، إلى الأئمة المشهورين من بعدهم ، أكثر من العصر الأول أو كثير من القسم الأول » ...

٣ ــ اعتقاد ضعف الحديث باجتهاد قد خالفه فيه غيره ، مع قطع النظر عن طريق آخر ...

ولذلك أسباب :

منها : أن يكون المحدث بالحديث يعتقده أحدهما ضعيفاً ،

ويعتقده الآخر ثقة . ومعرفة الرجال علم واسع ....

ومنها : أن لا يعتقد أن المحدث سمع الحديث ممن حدث عنه ، وغيره يعتقد أنه سمعه ...

ومنهـا ..... ومنهـا ...

٤ ـ اشتراطه فى خبر الواحد العدل الحافظ : شروطاً يخالفه فيها غيره .

مثل : اشتراط بعضهم : عرض الحديث على الكتاب والسنة .

واشتراط بعضهم : أن يكون المحدث فقيهاً إذا خالف قياس الأصول .

واشتراط بعضهم : انتشار الحديث وظهوره إذا كان فيما تعم به البلوى ... إلى غير ذلك .

٥ ـ أن يكون الحديث قد بلغه وثبت عنده ، لكن نسيه .

وذكر هنا قصة عمار بن ياسر وعمر بن الخطاب فى حكم المسافر الجنب إذا لم يجد الماء . حيث نسى عمر .

وكذلك موقف عمر من المغالاة فى المهور .

٦ ـ عدم معرفته بدلالة الحديث .

تارة : لكون اللفظ الذى فى الحديث غريباً عنده ..

وتارة : لكون معناه فى لغته وعرفه ، غير معناه فى لغة النبى ﷺ ...

وتارة : لكون اللفظ مشتركاً ، أو مجملاً ، أو متردداً بين حقيقة ومجاز ...

وتارة : لكون الدلالة من النص خفية فإن جهات دلالات الأقوال متسعة جداً يتفاوت الناس فى إدراكها ، وفهم وجوه الكلام بحسب منح الحق سبحانه ومواهبه .. وهذا باب واسع جداً لا يحيط به إلا الله .

٧ ـ اعتقاده أن لا دلالة فى الحديث ...

والفرق بين هذا ، وبين الذى قبله : أن الأول : لم يعرف جهة الدلالة .

والثانى : عرف جهة الدلالة ، لكن اعتقد أنها ليست صحيحة ، بأن يكون من الأصول مايرد تلك الدلالة سواء كانت فى نفس الأمر صواباً أو خطأً مثل :

أن يعتقد أن العام المخصوص ليس بحجة .

أو أن المفهوم ليس بحجة .

أو أن العموم الوارد على سبب مقصور على سببه

أو أن الأمر المجرد لا يقتضى الوجوب .

أو لا يقتضى الفور ...

فإن شطر أصول الفقه ، تدخل مسائل الخلاف منه فى هذا القسم ..

٨ ــ اعتقاده : أن تلك الدلالة قد عارضها مادل على أنها ليست مرادة .

مثل : معارضة العام بخاص ، أو المطلق بمقيد ، أو الأمر المطلق بما ينفى الوجوب ، أو الحقيقة بما يدل على المجاز . إلى أنواع المعارضات . وهو باب واسع أيضاً .

اعتقاده : أن الحديث معارض بما يدل على ضعفه . أو نسخه ، أو تأويله إن كان قابلاً للتأويل ، بما يصلح أن يكون معارضاً بالاتفاق : مثل آية ، أو حديث آخر ، أو مثل إجماع ...

١٠ ــ معارضته بما يدل على ضعفه ، أو نسخه ، أو تأويله ، مما لا يعتقده غيره »[1] .

تلك هى أهم وأظهر أسباب اختلاف العلماء فى الآراء .

أسباب الخلاف عند الإمام الشهيد :

لقد جمع الإمام الشهيد أهم وأظهر أسباب الخلاف فى الفروع والآراء والمذاهب فى عبارات موجزة مركزة ، وأرجع الخلاف لأسباب عدة :

« ــ منها اختلاف العقول فى قوة الاستنباط أو ضعفه ، وإدراك الدلائل والجهل بها ، والغوص على أعماق المعانى وارتباط الحقائق بعضها ببعض ...

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام : ص ٦ : ٢٧ .

ــ ومنها سعة العلم وضيقه . وأن هذا بلغه مالم يبلغ ذاك والآخر شأنه كذلك . وقد قال مالك لأبى جعفر : إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا فى الأمصار وعند كل قوم علم ، فإذا حملتهم على رأى واحد تكون فتنة .

ــ ومنها اختلاف البيئات حتى أن التطبيق ليختلف باختلاف كل بيئة . وإنك لترى الإمام الشافعى رضى الله عنه يفتى بالقديم فى العراق ، ويفتى بالجديد فى مصر ، وهو فى كليهما آخذ بما استبان له وما اتضح عنده . لا يعدو أن يتحرى الحق فى كليهما .

ــ ومنها اختلاف الاطمئنان القلبى إلى الرواية عند التلقين لها فبينما نجد هذا الراوى ثقة عند هذا الإمام تطمئن إليه نفسه وتطيب بالأخذ عنه .

تراه مجروحاً عند غيره لما علم من حاله .

ــ ومنها اختلاف تقدير الدلالات : فهذا يعتبر عمل الناس مقدماً على خبر الآحاد مثلاً ، وذاك لا يقول معه به وهكذا »[1] .

تلك هى خلاصة أسباب الخلاف كما يراها الإمام الشهيد وهى تلتقى تمام الالتقاء مع ماذكره شيخ الإسلام بحيث إن القارىء إذا اطلع على ماذكره شيخ الإسلام من أسباب بذلك العرض المفصل الممتع ثم اطلع على ماذكره الإمام الشهيد لقال : إن الثانى تلخيص للأول .

(١) مجموعة الرسائل (دعوتنا) ص ٢٣ : ٢٤ .

هل الخلاف فى الفروع ضرورى ؟ :

بعد أن عرفنا أسباب الاختلاف ، ورأينا التقاء الإمامين فى عرضها بلا اختلاف ، نجد أنفسنا أمام سؤال آخر هو :

هل الخلاف فى فروع الدين ضرورى لابد منه ولا مفر ؟

لقد تعرض كلا الإمامين لبيان الإجابة على هذا السؤال ، وقد اتفقت إجابتهما أيضاً كالعادة ..

فبينا وأكدا أن الإجماع والاتفاق على الأمور الفرعية لا يمكن تحققه . وأقاما الأدلة المقنعة ، والبراهين الساطعة على ذلك .

والآن نعرض لكلام الإمامين فى المسألة ليتضح لكل ذى عينين التقاؤهما على الطريق .

رأى شيخ الإسلام :

لقد أفاد شيخ الإسلام أن الخلاف فى الأمور الفرعية العملية ضرورى ، ولا يمكن رفعه ، ولا الإتفاق والإجماع على المسائل الفرعية .

والأدلة على ذلك هى :

١ ــ أسباب الاختلاف العشرة لا يمكن زوالها كلها وبالتالى لا يمكن رفع الخلاف بالكلية

٢ ــ اختلف الصحابة فى دقائق الفقه والعقيدة ولم يرتفع اختلافهم بالكلية وهم خير القرون . فكيف بمن بعدهم ؟

٣ ــ إقرار خبرة المجتهدين وأئمتهم بعضهم بعضاً فى مسائل الاجتهاد مع اختلاف آرائهم .

٤ ــ الحاجة إلى تفريع الأعمال وكثرة فروعها يستلزم النزاع ضرورة لاختلاف الأفهام وتفاوت العلوم ...

ذلك هو مجمل رأى شيخ الإسلام فى المسألة وأدلته .

والآن أنقل من كلامه الصريح مايوضح ذلك .

قال رحمه الله :

« إن مسائل الدق فى الأصول لا يكاد يتفق عليها طائفة ، إذ لو كان كذلك لما تنازع فى بعضها السلف من الصحابة والتابعين »[1] .

وهؤلاء هم خير القرون . وأعلم الخلق . فما بالك بمن بعدهم ؟

وقال أيضاً :

« لما دعت الحاجة إلى تفريع الأعمال ، وكثرة فروعها ، وذلك مستلزم لوقوع النزاع اطمأنت القلوب فيها إلى النزاع »[2] .

وقال أيضاً :

« وأما من تَرَجَّحَ عنده فضل إمام على إمام أو شيخ على شيخ بحسب اجتهاده ، كما تنازع المسلمون : أيهما أفضل :

---

(١) الفتاوى : جـ ٦ ص ٥٦ .

(٢) الفتاوى : جـ ٦ ص ٥٨ .

الترجيع فى الأذان أو تركه ؟ أو إفراد الإقامة أو إثنائها ؟ وصلاة الفجر بغلس أو الإسفار بها ؟ والقنوت فى الفجر أو تركه ؟ والجهر بالتسمية أو المخافتة بها أو ترك قراءتها ؟ ونحو ذلك .

فهذه مسائل الاجتهاد التى تنازع فيها السلف والأئمة . فكل منهم أقر الآخر على اجتهاده »[1] .

وقال أيضاً :

« واجتهاد العلماء فى الأحكام كاجتهاد المستدلين على جهة الكعبة ، فإذا صلى أربعة أنفس كل واحد منهم بطائفة إلى أربع جهات لاعتقادهم أن القبلة هناك :

فإن صلاة الأربعة صحيحة ، والذى صلى إلى جهة الكعبة واحد وهو المصيب الذى له أجران »[2] .

كما فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن اجتهد فأخطأ فله أجر »[3] .

وقال رحمه الله مبيناً أن أسباب الخلاف لا يمكن أن ترتفع كلها :

« وأما إحاطة واحد بجميع حديث رسول الله ﷺ وآله وسلم

(١) الفتاوى : جـ ٢٠ ص ٢٩٢ .

(٢) الفتاوى : جـ ٢٠ ص ٢٢٤ .

(٣) البخارى : (٧٣٥٢) مسلم (١٧١٦) .

فهذا لا يمكن ادعاؤه قط »[1] .

وذلك لخفاء العديد من السنن على الصحابة الكرام حتى الخلفاء الراشدين .

« فهؤلاء كانوا أعلم الأمة وأفقهها ، وأتقاها وأفضلها ، فمن بعدهم أنقص ، فخفاء بعض السنة عليهم أولى ، فلا يحتاج ذلك إلى بيان .

فمن اعتقد أن كل حديث صحيح قد بلغ كل واحد من الأئمة ، أو إماماً معيناً ، فهو مخطىء خطأ فاحشاً »[2] .

ثم رد على شبهة قد تعرض بل عرضت لكثير من الناس قديماً وحديثاً . فقال :

« ولا يقولن قائل : إن الأحاديث قد دونت وجمعت ، فخفاؤها والحال هذه بعيد ؛ لأن هذه الدواوين المشهورة فى السنن إنما جمعت بعد انقراض الأئمة المتبوعين رحمهم الله . فلا يجوز أن يدعى انحصار حديث رسول الله ﷺ فى دواوين معينة ... »[3] . وأخذ يفند هذه الشبهة بما يدحضها .

ثم تحدث عن المعرفة بدلالة الحديث ، وأنه لا يمكن لأى عالم أن يحيط بها .

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام : ص ٧ .

(٢) المصدر السابق / ص ١٣ .

(٣) المصدر السابق / ص ١٣ ، ١٤ .

« إن جهات دلالات الأقوال متسعة جداً ، يتفاوت الناس فى إدراكها ، وفهم وجوه الكلام ، بحسب منح الحق سبحانه ومواهبه .

ثم قد يعرفها الرجل من حيث العموم ، ولا يتفطن لكون هذا المعنى داخلاً فى هذا العام .

ثم قد يتفطن له تارة ، ثم ينساه بعد ذلك ، وهذا باب واسع جداً لا يحيط به إلا الله وقد يغلط الرجل ، فيفهم من الكلام مالا تحتمله اللغة العربية التى بعث الرسول ﷺ بها »[١] .

إن اتساع دلالات الأقوال ، واختلاف مدارك الناس وتفاوت أفهامهم . وإدراك هذا مايخفى على ذاك والعكس . كل هذا يؤكد ضرورة الخلاف فى الآراء .

ويقول رحمه الله :

« إن تعارض دلالات الأقوال ، وترجيح بعضها على بعض بحر خضم »[١] .

نخلص من ذلك أن بقاء الخلاف فى الفروع .. أمر لابد منه ولا يمكن رفعه إذ لو أمكن رفعه لارتفع فى حياة الصحابة الكرام فهم خير القرون ، وأعلم الناس وأفقههم . ومن بعدهم أنقص منهم فوجوده أولى ...

---

(١) رفع الملام .. ص ٢٣ .

(١) رفع الملام .. ص ٢٥ .

رأى الإمام الشهيد :

إن رأى الإمام الشهيد واضح جداً فى هذه المسألة للأسباب التى سبق ذكرها — سابقاً — فى أسباب الخلاف . وهذا الرأى يلتقى تماماً مع رأى شيخ الإسلام .

يقول الإمام الشهيد تحت عنوان : « الخلاف ضرورى . نحن نعتقد أن الخلاف فى فروع الدين أمر لابد منه ضرورة ، ولا يمكن أن نتحد فى هذه الفروع والآراء والمذاهب لأسباب عدة ... »[١] .

وأخذ يذكر الأسباب التى مرت قريباً . فتأملها ستجد أنها تتفق تماماً مع الأسباب التى ذكرها شيخ الإسلام .

وقال — أيضاً — بعد ذكر الأسباب :

« كل هذه أسباب جعلتنا نعتقد أن الإجماع على أمر واحد فى فروع الدين مطلب مستحيل ، بل هو يتنافى مع طبيعة الدين ، وإنما يريد الله لهذا الدين أن يبقى ويخلد ، ويساير العصور ، ويماشى الأزمان ، وهو لهذا سهل مرن هين لين لا جمود فيه ولا تشديد »[٢] .

ويقول فى موضوع آخر بأسلوب موجز جامع : « فأما البعد عن مواطن الخلاف الفقهى ، فلأن الإخوان يعتقدون أن الخلاف فى الفرعيات أمر ضرورى لابد منه إذ إن أصول الإسلام آيات وأحاديث

---

(١) مجموعة الرسائل (دعوتنا) ص / ٢٣ .

(٢) المصدر السابق / ص ٢٤ .

وأعمال تختلف فى تصورها العقول والأفهام . لهذا كان الخلاف واقعاً بين الصحابة أنفسهم ، ومازال كذلك وسيظل إلى يوم القيامة . وما أحكم الإمام مالكاً رضى الله عنه حين قال لأبى جعفر وقد أراد أن يحمل الناس على الموطأ :

« إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا فى الأمصار ، وعند كل قوم علم ، فإذا حملتهم على رأى واحد تكون فتنة »(1) .

موقفنا من الخلاف :

هنالك وهم عرض لبعض الناس ، ولبس سقطوا فيه ، فظنوا أنه مادام الخلاف فى فروع الدين ضروريا ولابد منه ، فإن الأمر سيصبح فوضى ، ولكل امرىء أن يختار ماتهواه نفسه من آراء شاذة ، وأقوال ضعيفة ...

ويصير الأمر فى النهاية إلى تحلل وتفسخ وميوعة ... ظنوا هذا ، وخيل لهم ذلك ، وحسبوا أن أقوال الإمامين يلزم منها هذا الفساد ، فانطلقت ألسنة البعض بحدة وشدة تجرح وتطعن وتثير معركة فى غير ميدانها ...

وأحب أن أقول إن الإمامين رحمة الله عليهما قد أرشدا إلى الموقف السديد الرشيد تجاه هذا الخلاف ولم يتركا الأمر .. كما توهم البعض .

ومن اطلع على كامل آرائهم فى المسألة ، وضم أطراف الكلام

---

(1) مجموعة الرسائل (المؤتمر الخامس) ص / 158 .

بعضه إلى بعض سيجده سديداً منسجماً متناسقاً ، هادياً إلى الرشاد .

وينبغى على المرء أن يصدق الله ليصدقه ، وأن يخلص لله ، ويتجرد من هواه ، وإذا أشكل عليه شىء سأله واستوضح حتى لا يخبط على غير هدى ... فإنما شفاء العى السؤال .

وهنالك جملة حقائق ينبغى أن تعلم فى هذا المقام :

إن آراء الإمامين — رحمة الله عليهما — تضىء السبيل للدعاة ، وتنبههم إلى منعطف خطير قد يطيحون فيه عن الجادة ، وترشدهم إلى مايتوقون به خطر هذا المنعطف .

فالدعاة إلى الله عند انطلاقهم فى البلاد المختلفة ، والأقطار المتعددة ، حاملين دعوة الله إلى الناس لإخراجهم من الظلمات إلى النور ، وربطهم برب العالمين ، وغرس العبودية الشاملة فى النفوس ، لتثمر عزة ومجداً . ورفعة وسؤدداً ...

عند انطلاقهم بالدعوة لعلاج الأمراض الخطيرة وإصلاح الانحرافات المستطيرة ، يجدون الناس متفاوتين فى أداء بعض الفروع ، مختلفين فى تطبيق بعض صور الأمور الفقهية وقد ألف كل قوم هذا التطبيق ، وذلك الأداء ، لأن العلم وصلهم بذلك ، وتربوا على ماوصلهم وفهموه من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ .. وقد يكون فهم الداعية مخالفاً فى بعض الفروع لما عليه القوم وقد يكون مصيباً وقد يكون مخطئاً فيقف عند هذه الأمور يلاحن القوم ، ويخاصمهم ويماريهم ويجادلهم ، فيطعنونه ويرد عليهم ، ويتهمونه ويبادلهم ،

ويجهلونه ويجهلهم .. ويتدخل الهوى فيعمى القلوب ، وينشط الشيطان فيوغر الصدور .

فتكون الثمرة حصاداً مراً من الفرقة القاتلة بين المسلمين !!

وفشلاً ذريعاً للدعاة .

واستفحالاً للأمراض الخطيرة التى قد تخرج صاحبها من الدين ، وتورثه الذل المهين .. وحينئذ يصبح الداعية صاداً عن سبيل الله ، لا داعية إلى الله . سبب إغراق ، لا سفينة نجاة .

أدرك الإمامان هذا — وكل من له أدنى احتكاك بالدعوة يدرك هذا — فزودا الدعاة بتلك الحقيقة ، وهى أن الخلاف والتنازع فى الفروع ضرورى تطمئن إليه القلوب السليمة ، فلا يبدد الداعية طاقاته ، ويستنفد جهوده فى أمر لابد منه .

وهل هناك جماعة على وجه الأرض قد اتفقت تماماً فى فروع الدين منذ الصحابة إلى اليوم .. ؟ .

اللهم لا .

فواجب الدعاة أن تنصرف جهودهم وتركز على مالا يجوز فيه الخلاف . هذه واحدة ...

٢ — وحقيقة أخرى وهى :

أن الخلاف فى فروع الدين درجات :

فمنه : مايكون الفرق بين الراجح والمرجوح ضئيلاً جداً بحيث

يصعب ويتعسر على الباحث أن يوازن بينهما .

ومنه : مايكون الفرق بين الراجح والمرجوح وسطاً بحيث يمكن للباحث أن يوازن بينهما بشىء من الجهد والتأمل .

ومنه : مايكون الفرق بين الراجح والمرجوح شاسعاً بحيث يتجلى للباحث بكل سهولة الفرق بينهما .

فمسائل الخلاف ليست على درجة واحدة . والذى يدرك هذا الأمر العلماء الصادقون ، والباحثون المخلصون لا المتعصبون ولا المستهترون .

٣ — وحقيقة أخرى :

بعد معرفتنا بدرجات الخلاف ، ينبغى أن نعلم أن كل اجتهاد استند إلى أصل شرعى وله وجه مقرر فى اللغة العربية ، فهو اجتهاد معتبر سائغ سواء كان راجحاً أو مرجوحاً فى الواقع ونفس الأمر .

وما ليس له مستند ولا وجه إلا الهوى فليس بمعتبر . وهذا قليل عند المتدينين ، كثير عند المتحللين أصحاب الهوى والشهوات .

ومن الجدير بالذكر هنا أن مسائل الاجتهاد المعتبر قد تكون واضحة جلية عندى غامضة عند غيرى أو العكس حينئذ فلا يجوز لى أن أحمله على رأيى .

يقول شيخ الإسلام :

« وأما الأقوال والأعمال التى لم يعلم قطعاً مخالفتها للكتاب

والسنة بل هى من موارد الاجتهاد التى تنازع فيها أهل العلم والإيمان ، فهذه الأمور قد تكون قطعية عند بعض من بَيَّنَ الله له الحق فيها ، لكنه لا يمكنه أن يلزم الناس بما بأن له ولم يبن لهم »(١) .

المناقشة تحت ظلال الأخوة :

لقد بين الإمامان أن الخلاف فى الأمور الفقهية الفرعية أمر وارد ، ولم يخل منه عصر ، ولا عيب فى هذا الخلاف فهو مظهر من مظاهر مرونة هذا الدين ، وتشجيعه للعقول أن تنشط وتفكر ...

لا غرو فى هذا إنما العيب فى التعصب الذميم المؤدى إلى الفرقة والخصام .

ومع بيان هذه الحقيقة فقد نبها على أن هذا لا يعنى ترك الأمور بدون تحقيق لمحاولة الوصول إلى الصواب أو الأقرب .

لقد نبها على أنه لا مانع من المناقشة العلمية النزيهة بل حثا على ذلك بشرط أن تكون تحت ظلال الأخوة والحب فى الله .

قول شيخ الإسلام :

لقد وضح شيخ الإسلام رحمه الله أن منهج السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم هو المناقشة والمناصحة تحت ظلال أخوة الدين مادام فى الأمر متسعاً للاجتهاد وتبادل الآراء ووجهات النظر .

فقال رحمه الله :

---

(١) الفتاوى : جـ ١ ص ٣٨٣ ، ٣٨٤ .

« قد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا فى الأمر اتبعوا أمر الله تعالى فى قوله : ﴿ **فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا** ﴾(١) .

وكانوا يتناظرون فى المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة ، وربما اختلف قولهم فى المسألة العلمية والعملية مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين .

نعم من خالف الكتاب المستبين ، والسنة المستفيضة أو ما أجمع عليه سلف الأمة خلافاً لا يعذر فيه فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع »(٢) .

وأخذ يذكر العديد من المسائل التى اختلف فيها الصحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان مبيناً أن هذا الخلاف لم يقطع آصرة الأخوة ، ووشيجة المحبة والألفة ...

ثم قال رحمه الله :

« وأما الاختلاف فى الأحكام فأكثر من أن ينضبط ولو كان كلما اختلف مسلمان فى شىء تهاجرا لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة »(٣) .

---

(١) النساء : ٥٩ .

(٢) الفتاوى : جـ ٢٤ ص ١٧٢ .

(٣) الفتاوى : جـ ٢٤ ص ١٧٣ .

قول الإمام الشهيد :

لقد ركز الإمام الشهيد على هذا الأمر تركيزاً شديداً وذلك لانتشار الفرقة بصورة مفزعة والناس أحوج مايكونون إلى الأخوة والجماعة .

فقال مبيناً حقيقة الخلاف :

« وليس العيب فى الخلاف ، ولكن العيب فى التعصب للرأى والحجر على عقول الناس وآرائهم »[1] .

ويبين الإمام الشهيد أنه لا مانع من مناقشة مسائل الخلاف للوصول للحق فى ظل الحب والأخوة فى الله فيقول :

« يعلم الإخوان المسلمون كل هذه الحيثيات ، فهم لذلك أوسع صدراً مع مخالفيهم ، ويرون أن مع كل قوم علماً ، وفى كل دعوة حقاً وباطلاً .

فهم يتحرون الحق ويأخذون به ، ويحاولون فى هوادة ورفق إقناع المخالفين بوجهة نظرهم .

فإن اقتنعوا فذاك ، وإن لم يقتنعوا فإخوان فى الدين نسأل الله لنا ولهم الهداية .

ذلك منهاج الإخوان المسلمين أمام مخالفيهم فى المسائل الفرعية فى دين الله .

---

(١) مجموعة الرسائل (المؤتمر الخامس) ص ١٥٨ .

يمكن أن أجمله لك فى أن :

الإخوان يجيزون الخلاف ويكرهون التعصب للرأى ويحاولون الوصول إلى الحق ويحملون الناس على ذلك بألطف وسائل اللين والحب »[1] .

ويقول أيضاً بصورة واضحة جامعة :

« ٨ ــ والخلاف الفقهى فى الفروع لا يكون سبباً للتفرق فى الدين ولا يؤدى إلى خصومة ولا بغضاء ولكل مجتهد أجره ، ولا مانع من التحقيق العلمى النزيه فى مسائل الخلاف فى ظل الحب فى الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب »[2] .

هذا هو كلام الإمامين رحمهما الله ، وهو واضح كل الوضوح بحيث لا يحتاج إلى زيادة بيان ، ولا إزالة إيهام .

وكان من ثمار هذا المنهج الرشيد أن انكسرت حدة التعصب ــ عن ذى قبل ــ وتآلفت قلوب كثيرة بعد نفرة .. وتعايشت فى حب ووئام بدل العراك والخصام ، واتجهت للبناء والتعمير بدل الهدم والتدمير .

وأخرج الإخوان كتاب فقه السنة للشيخ السيد سابق وقدم له الإمام الشهيد ، وأثنى عليه ، وحفز على سلوك منهجه غير مخاصم

---

(١) مجموعة الرسائل (دعوتنا) ص ٢٥ .

(٢) مجموعة الرسائل (رسالة التعاليم) ص ٢٦٩ .

لمخالفه ، سائلا الله للجميع التوفيق والهداية .

العيب فى التعصب لا الخلاف :

عرفنا أن الخلاف فى الفروع لا مفر منه ، وليس فى ذلك عيب ولا غضاضة ، فتلك سنة الله فى خلقه التى اقتضت اختلاف الأفهام وتفاوتها .. ومرونة الدين ومسايرته لكافة العصور ، فإنه الدين الخاتم .

إنما العيب فى التعصب للرأى ، والحجر على الغير ، ومصادرة آرائهم ، وإعجاب المرء بفكره ورأيه ، وازدرائه لغيره وقطع حبائل أخوته ، والسعى فى أذيته ، والتخاذل عن نصرته ...

هذا هو العيب الذى نهى عنه الإسلام الذى ارتضاه الجميع ديناً يدينون به لله الواحد الأحد .

لقد كان الصحابة يختلفون فى المجلس الواحد ، وأحياناً تشتد المناظرة والمنازعة ، لكنها شدة لا تتجاوز اللسان وسرعان ما تنتهى ، أما القلب فيُكنُّ للآخر كل رحمة وحب وتقدير .

قال تعالى :

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾(١) .

وما موقف ابن عباس وزيد بن ثابت رضى الله عنهم ببعيد فقد

---

(١) الفتح / ٢٩ .

اختلف ابن عباس رضىُ الله عنهما مع زيد بن ثابت رضى الله عنه فى مسألة من مسائل الفرائض :

« فكان زيد يرى توريث الإخوة مع الجد . وكان ابن عباس يرى أن الجد يسقط جميع الإخوة والأخوات كالأب فقال ابن عباس يوماً : ألا يتقى الله زيد ، يجعل ابن الابن ابناً ، ولا يجعل أب الأب أباً !! وود أن يباهل مخالفيه .

وفى يوم ما رأى ابن عباس رضى الله عنهما زيداً رضى الله عنه يركب دابته ، فأخذ بركابه يقود به .

فقال زيد : تنح ياابن عم رسول الله ﷺ ، فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا . فقال زيد : أرنى يدك ، فأخرج ابن عباس يده فقبلها زيد وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا »(١) .

وكذلك حدث بين الإمامين على بن المدينى وأحمد بن حنبل رحمهما الله عندما تناظرا فى الشهادة للعشرة بالجنة ، وكان أحمد يرى الشهادة ، وعلى يأبى حتى ارتفعت أصواتهما وخشى من حدوث جفاء بينهما . فلما أراد على الانصراف قام أحمد فأخذ بركابه »(٢) .

وإليك صورة مشرقة من مواقف الأئمة .

---

(١) الإصابة لابن حجر ١ / ٢٦١ ، ٢ / ٣٣٢ ، مجمع الزوائد ٩ / ٣٤٥ ، حياة الصحابة : ٢ / ٤٤٠ ، ٤٤١ .

(٢) أنظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر جـ ٢ ص ١٠٧ .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله :

« من المأثور أن الرشيد احتجم ، فاستفتى مالكاً ، فأفتاه بأنه لا وضوء عليه . فصلى خلفه أبو يوسف . ومذهب أبى حنيفة وأحمد أن خروج النجاسة من غير السبيلين ينقض الوضوء . ومذهب مالك والشافعى أنه لا ينقض الوضوء . فقيل لأبى يوسف : أتصلى خلفه ؟! فقال : سبحان الله ! أمير المؤمنين ! فإن ترك الصلاة خلف الأئمة لمثل ذلك من شعائر أهل البدع كالرافضة والمعتزلة . ولهذا لما سئل الإمام أحمد عن هذا فأفتى بوجوب الوضوء . فقال له السائل : فإن كان الإمام لا يتوضأ ، أصلى خلفه ؟ فقال : سبحان الله ! ألا تصلى خلف سعيد بن المسيب ومالك بن أنس ؟ »[1] .

وكان الإمام أبو حنيفة لا يرى القنوت فى الفجر ، والشافعى يراه . فلما سافر الشافعى إلى الكوفة ، وأم الناس فى الفجر . ترك القنوت أدباً مع أبى حنيفة . رحمة الله على الأئمة أجمعين .

ويندد الإمام الشهيد بالتعصب الذميم حتى يعده من أسباب هدم كيان الأمة الإسلامية .

فيقول رحمه الله : أهم هذه العوامل :

« ب ـــ الخلافات الدينية والمذهبية والانصراف عن الدين كعقائد وأعمال إلى ألفاظ ومصطلحات ميتة ، لا روح فيها ولا حياة ، وإهمال كتاب الله وسنة الرسول ﷺ ، والجمود والتعصب

---

(١) الفتاوى : جـ ٢ ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

للآراء والأقوال ، والولع بالجدل والمناظرات والمراء ، وكل ذلك مما حذر منه الإسلام ونهى عنه أشد النهى »[1] حتى قال رسول الله ﷺ :

« ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل »[2] .

ويقول أيضاً :

« ليس العيب فى الخلاف ولكن العيب فى التعصب للرأى والحجر على عقول الناس وآرائهم »[3] .

وأخيراً : هناك شبهتان :

أحب فى النهاية أن أنبه إلى أمر يسير قد يعرض لبعض النفوس فيؤرقها ، فأحببت أن أزيل هذا .

الأولى : الخلاف شر

قد يقرأ البعض على ألسنة بعض الصحابة ، أو العلماء على مر العصور ، ومختلف الدهور قولتهم :

« الخلاف شر » كما قال ابن مسعود رضى الله عنه ، أولا نحب الخلاف ، أو الخلاف سبب ضعفنا ، أو الله نهى عن الخلاف ...

فيحار هذا المرء فى أمره ، وقد يظل حائراً لا يتقدم ولا يتأخر ،

---

(١) مجموعة الرسائل (بين الأمس واليوم) ، ص ١٣١ .

(٢) (ت ٣٢٥٣ ، جه ٤٨) حم ٥ / ٢٥٢ .

(٣) مجموعة الرسائل (المؤتمر الخامس) ص ١٥٨ .

وقد ينطلق مجرحاً طاعناً متهماً من يقول بضرورة الخلاف فى فروع الدين ، وأنه لابد منه .

فأقول للحائر : ليس فى الأمر حيرة .

وأقول للطاعن : على رسلك . ففى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة .

فالخلاف يطلق ويراد به المنازعة والفرقة والجدل والشقاق المورث للخصومة والبغضاء ، والكره العداء ...

ويطلق ويراد به التغاير فى الرأى ووجهات النظر نتيجة اختلاف وتفاوت وتغاير العقول والمدارك ، مع الالتزام بحدود الخلاف ، والتحلى بآدابه .

وهذا هو ماوقع فيه سلف الأمة والعلماء والأئمة .. على هذا ، إذا سمعنا أو قرأنا قولة إمام : الخلاف ضرورى ، ونحن نجيزه ، لاطمئنان القلب إلى وقوعه . فالمراد : الخلاف بالمعنى الثانى .

وإذا سمعنا أو قرأنا ذم العالم للخلاف ... فالمراد الخلاف بالمعنى الأول .

والآن ليهدأ ويستقر الحائر . وليكف ويسكت الطاعن .

الثانية : الحق واحد لا يتعدد :

وشىء آخر قد يلتبس فهمه على بعض الناس وهو قاعدة : « الحق واحد لا يتعدد » .

أقول : هذه القاعدة صحيحة صادقة عليها جمهور أهل السنة والجماعة . وهى لا تتنافى مع تقرير ضرورة الخلاف فى الفروع . وذلك لعدة أمور :

الصحابة اختلفوا فى أيام الرسول ﷺ وأقرهم كما فى حديث صلاة العصر فى بنى قريظة .

وكذلك اختلفوا بعده . قد يقول قائل : إن اختلافهم كان اختلاف تنوع وهذا أقره . فأقول لهذا الأخ : صحيح قولك ياأخى فى بعض دون بعض فكثير من اختلاف الصحابة كان اختلاف تنوع ، وكثير أيضاً كان غير ذلك .

فهذا يفتى بالحل ، وآخر بالحرمة ... وهذا يفتى بالجواز وآخر بعدمه وآخر بوجوبه .. وكان الصحابة يلتقون فى مجلس واحد ويتناقشون وهذا يأتى بأدلته وهذا كذلك .. ثم قد يتفقون وقد لا يتفقون . وكذلك الأئمة بعدهم ، التقوا كثيراً .. ومع ذلك بقى خلاف فى بعض المسائل لم يحسم ...

هذا شىء واضح فإذا اقتنع المرء فبها ونعمت وإلا انتقلنا لأمر آخر .

المراد بقاعدة : « الحق واحد لا يتعدد » أنه واحد فى الحقيقة ، أو فى الواقع ونفس الأمر .

أما بحسب مايتجلى للعلماء فهو قسمان :

١ — قسم أظهره الله لنا ، وجلاه أتم جلاء ، وأقام عليه الأدلة

القاطعة الصريحة . مثل :

أن الله واحد لا شريك له ، وأنه وحده المستحق للعبادة وما سواه عباد له .. وأن شهر الصوم هو رمضان .. وأن الحج لا يصح بدون الوقوف بعرفة .. فهذه المسائل ونظيرها ، الحق فيها واحد فى الواقع ونفس الأمر ، وهو ظاهر لنا فلا يجوز فيها الخلاف ولا الاجتهاد ولا يقبل فيها قول مخالف .

٢ — وقسم خفى علينا ، فأدلته محتملة لمعان عدة ولا نستطيع الجزم به يقيناً كجزمنا بالقسم الأول فهذا القسم يسوغ فيها الاجتهاد ، وإعمال العقول والأفهام لاستنباط الآراء ..

ويذهب كل عالم إلى مايترجح من الأدلة ، ويطمئن إليه قلبه .

ولا ينكر أحد على الآخر فهذا القسم الثانى لا يجوز فيه أن نضرب آراء الآخرين ونرميها بالزيغ والضلال ، والفساد والبطلان بقاعدة « الحق واحد لا يتعدد » .

نعم هو واحد فى الواقع ونفس الأمر ، فى الحقيقة . أما ظهوره فغير متيقنين منه هنا لاحتمال الدليل .

والواجب علينا فى هذا القسم ، والذى سنحاسب عليه أمام الله هو : بذل الجهد ، واستفراغ الوسع ، متحلين بتقوى الله ، متجردين من الهوى ، ولسنا مطالبين فى هذه الحالة بإصابة ذلك الحق الواحد الذى لا يتعدد فى الواقع ونفس الأمر . فالثواب حاصل فى الحالين : الصواب والخطأ . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وهاهنا كلمة رائعة لشيخ الإسلام رحمه الله يقول فيها :

« واجتهاد العلماء فى الأحكام كاجتهاد المستدلين على جهة الكعبة فإذا صلى أربعة أنفس كل منهم بطائفة إلى أربع جهات لاعتقادهم أن القبلة هناك ، فإن صلاة الأربعة صحيحة . والذى صلى إلى جهة الكعبة واحد وهو المصيب الذى له أجران »[١] كما فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن اجتهد فأخطأ فله أجر »[٢] .

أظن أن فى هذا كفاية لإزالة الإشكال ، وإيضاح الإبهام . والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

وجزى الله الإمامين شيخ الإسلام ، والإمام الشهيد على تلك النظرة الصائبة السديدة الرشيدة المتفهمة لروح الإسلام السهل اليسير ، الهين اللين ، والحاسم الحازم .

تلك النظرة التى خرجت من مشكاة واحدة فالتقت على تباعد الزمان ، وتباين المكان تلك النظرة الهادية للأمة المصلحة لها لأنها نظرة السلف الأوائل ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

---

(١) الفتاوى جـ ٢٠ ص ٢٢٤ .

(٢) (خ ٧٣٥٢ ، م ١٧١٦) .

حكم التقليد

حكـــــم التقليـــــد

لقد وقف الناس قديماً وحديثاً من الاجتهاد والتقليد مواقف شتى وخرجوا بآراء متباينة : فمنهم الموجب بإطلاق ومنهم المحرم بإطلاق ومنهم الوسط وهم الحكماء .

وممن سلك طريقاً وسطاً فى هذا الباب : الإمامان الجليلان : شيخ الإسلام ، والإمام الشهيد فقد التقيا على الرأى المعتدل المنسجم مع وسطية هذا الدين ويسره المشروع .

وقد جلى كل منهما ذلك بأسلوب يجمع بين دقة الفقيه ، ورفق الداعية . فبينا من يجوز له التقليد ، ومن لا يجوز .

أقوال شيخ الإسلام :

يقول شيخ الإسلام : « من غالية المتكلمة والمتفقهة من يوجب النظر والاجتهاد فى المسائل الفرعية على كل أحد حتى على العامة . وهذا ضعيف ، لأنه لو كان طلب علمها واجباً على الأعيان ، فإنما يجب مع القدرة .

والقدرة على معرفتها من الأدلة المفصلة تتعذر أو تتعسر على أكثر العامة .

وبإزائهم من أتباع المذاهب من يوجب التقليد فيها على الجميع من بعد الأئمة : علمائهم ، وعوامهم . والذى عليه جماهير الأمة أن الاجتهاد جائز فى الجملة والتقليد جائز فى الجملة لا يوجبون الاجتهاد على كل أحد ويحرمون التقليد ولا يوجبون التقليد على كل أحد ويحرمون الاجتهاد وأن الاجتهاد جائز للقادر على الاجتهاد والتقليد جائز للعاجز عن الاجتهاد »[1] .

ويقول أيضاً :

« وتقليد العاجز عن الاستدلال للعالم يجوز عند الجمهور »[2] .

ويقول أيضاً :

« واتباع شخص لمذهب شخص بعينه لعجزه عن معرفة الشرع

---

(١) الفتاوى / جـ ٢٠ ص ٢٠٣ : ٢٠٤ .

(٢) الفتاوى / جـ ١٩ ص ٢٦٢ .

من غير جهته إنما هو مما يسوغ له ليس هو مما يجب على كل أحد إذا أمكنه معرفة الشرع بغير ذلك الطريق .

بل كل أحد عليه أن يتقى الله ما استطاع ، ويطلب علم ما أمر الله به ورسوله ، فيفعل المأمور ، ويترك المحظور . والله أعلم »[١] .

ويبين شيخ الإسلام رحمه الله بعض مبررات تقليد العاجزين عن الاستدلال للأئمة رحمهم الله فيقول :

« لما كان من الأحكام ما لا يعرفه كثير من الناس ، رجع الناس فى ذلك إلى من يعلمهم ذلك ، لأنه أعلم بما قاله الرسول ﷺ وأعلم بمراده ، فأئمة المسلمين الذين اتبعوهم وسائل وطرق وأدلة بين الناس وبين الرسول ﷺ ، يبلغونهم ماقاله ويفهمونهم مراده بحسب اجتهادهم واستطاعتهم ، وقد يخص الله هذا العالم من العلم والفهم ماليس عند الآخر .

وقد يكون عند ذلك فى مسألة أخرى من العلم ما ليس عند هذا »[٢] .

هذه بعض أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية يتجلى فيها حكمته ، واعتداله فى مسألة الاجتهاد والتقليد . وهى أقوال واضحة تغنى بذكرها عن شرحها .

---

(١) الفتاوى / جـ ٢٠ ص ٢٠٩ .

(٢) الفتاوى / جـ ٢٠ ص ٢٢٤ .

والخلاصة :

جواز التقليد .

للعاجز

ويسوغ له تقليد إمام واحد إذا لم يعرف غيره .

عليه أن يتحلى بتقوى الله فى تقليده .

أقوال الإمام الشهيد :

لقد تحدث الإمام الشهيد عن موضوع الاجتهاد والتقليد الذى تفرق فيه الناس واختلفوا فى عصره ، وتناحروا وتهاجروا بسببه ..

فجمع خلاصة الخير فى جمل قليلة دقيقة رفيقة : فقال رحمه الله :

« ٧ ــ ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر فى أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماماً من أئمة الدين .

ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ماستطاع فى تعرف أدلته .

وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صلاح من أرشده وكفايته .

وأن يستكمل نقصه العلمى إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر »[١] .

تلك هى خلاصة رأى الإمام الشهيد فى هذه المسألة وهو يلتقى

---

(١) مجموعة الرسائل (رسالة التعاليم) ص ٢٦٩ .

مع شيخ الإسلام على طريق الاعتدال والوسطية . فرحمة الله عليهما ، وجزاهما الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

إنكار التعصب :

لقد التقى الإمامان رحمهما الله على جواز التقليد فى الجملة ، وقد تعرضا أيضاً لموضوع التعصب المذموم .

فأقرا التقليد فى الجملة بحيث لا يصل إلى درجة التعصب الذميم بحيث يتعصب المرء لشيخه أو رأيه فيوالى ويعادى على موافقته ، أو لا يصغى لنصح الآخرين وينتقصهم ، أو يعرض عن اتباع الرأى الصريح الجلى الذى يدل عليه الكتاب والسنة ...

أنكر الإمامان هذا التعصب ، ومع ذلك بينا حدود مايترتب عليه ، ويستدعيه .

فلا ينبغى أن يترتب عليه هجر ولا قطيعة ، ولا فرقة وخصومة ...

موقف شيخ الإسلام :

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

« ومن نصب شخصاً كائناً من كان ، فوالى وعادى على موافقته فى القول والفعل فهو « من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً » .

وإذا تفقه الرجل وتأدب بطريقة قوم من المؤمنين مثل : اتباع الأئمة والمشايخ ، فليس له أن يجعل قدوته وأصحابه هم المعيار ،

فيوالى من وافقهم ، ويعادى من خالفهم .

فينبغى للإنسان أن يعود نفسه التفقه الباطن فى قلبه ، والعمل به ، فهذا زاجر . وكمائن القلوب تظهر عند المحن »[1] .

ويقول أيضاً رحمه الله :

« فمن ترجح عنده تقليد الشافعى لم ينكر على من ترجح عنده تقليد مالك ومن ترجح عنده تقليد أحمد لم ينكر على من ترجح عنده تقليد الشافعى ، ونحو ذلك »[2] .

هذا كلام واضح جلى فى إنكار التعصب المؤدى إلى موالاة أو معاداة . أو حمية وإنكار وإلغاء لرأى الغير . فليختر كلٌ مابدا له مادام الأمر فى دائرة مايجوز فيه الاجتهاد .

ويبين رحمه الله ماينبغى وما لا ينبغى أن يصنع ويعامل به المقلد . فقد « سئل شيخ الإسلام عمن يقلد بعض العلماء فى مسائل الاجتهاد : فهل ينكر عليه أم يهجر ؟ وكذلك من يعمل بأحد القولين ؟

فأجاب : الحمد لله ، مسائل الاجتهاد من عمل فيها بقول بعض العلماء لم ينكر عليه ، ولم يهجر . ومن عمل بأحد القولين لم ينكر عليه .

وإذا كان فى المسألة قولان : فإن كان الإنسان يظهر له رجحان

---

(١) الفتاوى / جـ ٢٠ ص ٨ ، ٩ .

(٢) الفتاوى / جـ ٢٠ ص ٢٩٢ : ٢٩٣ .

أحد القولين عمل به ، وإلا قلد بعض العلماء الذين يعتمد عليهم فى بيان أرجح القولين . والله أعلم »[١] .

موقف الإمام الشهيد :

يقول الإمام الشهيد رحمه الله مبيناً جواز الخلاف فى الفروع الفقهية ، داعياً إلى المناقشة العلمية النزيهة ، بحيث لا تفضى إلى التعصب الذميم :

« ٨ ــ والخلاف الفقهى فى الفروع لا يكون سبباً للتفرق فى الدين . ولا يؤدى إلى خصومة ولا بغضاء ولكل مجتهد أجره . ولا مانع من التحقيق العلمى النزيه فى مسائل الخلاف فى ظل الحب فى الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة . من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب »[٢] .

وأوصى الإمام الشهيد رحمه الله المقلد بأن يكون واسع الصدر متفاهماً مع غيره بحيث يتقبل نصحه فيقول :

« ٧ ــ ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع فى تعرف أدلته (يعنى أدلة الإمام) .

وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صلاح من أرشده وكفايته »[٣] .

---

(١) الفتاوى / جـ ٢ ص ٢٠٧ .

(٢) مجموعة الرسائل (رسالة التعاليم) ص ٢٦٩ .

(٣) المصور السابق والصفحة .

وقد تعرض رحمه الله للتعصب المذهبى عند الحديث عن عوامل التحلل فى كيان الدولة الإسلامية وجعل هذا التعصب أحد الأسباب الكبيرة التى أسهمت فى إضعاف أمة الإسلام .

فقال رحمه الله :

« وكان أهم هذه لأسهمت فى إضعاف أمة الإسلام .

فقال رحمه الله :

« وكان أهم هذه العوامل :

أ ــ الخلافات السياسية ولعصبية وتنازع الرياسة والجاه ...

ب ــ الخلافات الدينية والمذهبية والانصراف عن الدين كعقائد وأحكام إلى ألفاظ ومصطلحات ميتة لا روح فيها ولا حياة ، وإهمال كتاب الله وسنة الرسول ﷺ ، والجمود والتعصب للآراء والأقوال ، والولع بالجدل والمناظرات والمراء ، وكل ذلك مما حذر منه الإسلام ونهى عنه أشد النهى ، حتى قال ﷺ :

« ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل »[١] .

جـ ــ الانغماس فى ألوان النزف والنعيم ، والإقبال على المتعة والشهوات ... »[٢] .

وأخذ رحمه الله يعدد الأسباب التى أخضعت الأمة الإسلامية ومزقتها .

---

(١) (ت ٣٢٥٣ ، جه ٤٨) حم ٥ / ٢٥٢ .

(٢) مجموعة الوسائل (بين الأمس واليوم) ص ١٣١ .

العقيـــدة

لقد التقى شيخ الإسلام ، والإمام الشهيد على عقيدة واحدة صافيه نقية كما كان عليها الجيل الأول خير القرون .

ولقد ظهرت آثار هذه العقيدة الحية المستقيمة فى سلوكهما — رحمة الله عليهما — فأعطى الله كلاً منهما عظيم الهمة فأحيا الأمة .

ولقد جاهد كل منهما فى الله حق جهاده حتى أتاه اليقين جاهد بالقلم والسنان ، بالسيف واللسان فأرهب الله بهما الكفر وأهله ، وجعلهما سداً منيعاً أمام المعتدين والطغاة الظغاة الظالمين .

ولقد كانت حياتهما رحمة الله عليهما مثلاً حياً لعزة هذا الدين ولقد نفع الله بجهودهما . فما زالت البشرية إلى يومنا هذا تنعم بتراثهما الإسلامى ، وكنوزهما الربانية فى مختلف مجالات الإسلام . فجزاهما الله عن الإسلام خير الجزاء ورحمهما الله رحمة واسعة .

لقد تعرض شيخ الإسلام ، والإمام الشهيد للكلام فى بعض مباحث العقيدة ، بالتفصيل تارة ، وبالإيجاز أخرى .

ولقد التقيا بفضل الله فى تلك المباحث سواء الجليل الواضح منها والدقيق الخفى حتى المسائل الشائكة منها .

ولقد صعب على بعض النفوس أو عز عليها أن تفهم أو تسلم بهذه الحقيقة . فقاموا بالطعن والتجريح ، والرمى بأبشع التهم . وأخذوا يهولون الهين ، ويعظمون اليسير ، حتى جعلوا من الحبة قبة ، ومن القط جملاً ..

وكم من عائب قولاً صحيحاً   وآفته من الفهم السقيم

وسوف أجلى هنا بمشيئة الله التقاء الإمامين . بما يثلج الصدور ، ويطمئن القلب .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

لا استعانة بالمقبورين :

لقد حرص كلا الإمامين على تنقية العقيدة من مظاهر الشرك وجاهدا هذه المنكرات جهاداً صريحاً .

فبينا بكل وضوح منافاة هذه المنكرات لعقيدة التوحيد الصافية النقية التى جاء بها رسول الله ﷺ وعاشها الجيل الأول خير القرون وأحبها إلينا .

لقد بينا أن الاستعانة لا تكون إلا بالله وحده فإننا نقرأ فى كل صلاة ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾[1] . فلماذا يغفل هؤلاء عن هذه الحقائق البينة ؟ .

إن كل مظاهر العبودية ينبغى أن يخص بها الله وحده ولا يصرف شئ منها لأى أحد غيره .

قول شيخ الإسلام :

لقد ركز شيخ الإسلام على هذا الباب ، وكتب فيه الكثير ، بحيث إنك لا تكاد تقرأ له مؤلفاً إلا وتحدث فيه عن هذه المسألة وأشباهها ، وذلك مما يجلى حرصه رحمه الله على تنقية العقيدة والمحافظة على صفائها ، وإبعاد ماأصاب الناس فى عقائدهم من مظاهر الجاهلية والشرك ، سواء قصدوا ذلك أو لم يقصدوا . فالتنبيه وارد على كل الأحوال .

---

(١) الفاتحة : ٥ .

« فبين رحمه الله ان دعاء غير الله من المقبورين وسؤالهم حرام وهو من مظاهر الشرك « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وأن العلماء قالوا : لا يجوز بناء المسجد على القبور وقالوا : إنه لا يجوز أن ينذر لقبر ، ولا للمجاورين عند القبر شيئاً من الأشياء ... كله نذر معصية وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ قال :

« من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصه الله فلا يعصه »(١) .

وقد اتفق العلماء على أن من زار أى قبر أنه لا يتمسح به ولا يقبله ، بل ليس فى الدنيا من الجمادات مايشرع تقبيلها إلا الحجر الأسود .

وقد ثبت فى الصحيحين : أن عمر رضى الله عنه قال :

« والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ماقبلتك »(٢) .

ومن أعظم الشرك أن يستغيث الرجل بميت أو غائب .. ويستغيث به عند المصائب ، يقول : ياسيدى فلان ! كأنه يطلب منه إزالة ضره أو جلب نفعه »(٣) .

قول الإمام الشهيد :

لقد ركز الإمام الشهيد على تنقية العقيدة من الشوائب وتأسيس

---

(١) (خ ٦٦٩٦) .

(٢) خ ١٥٩٧ ، م ١٢٧٠) .

(٣) أنظر الفتاوى / جـ ٢٧ ص ٦٨ : ٨١ .

دعوته على هذه العقيدة الصافية وجعل فهم العقيدة الصافية أصلاً من أصول الدعوة ، وشرطاً لصحة الانضمام إلى هذه الدعوة .

فقال رحمه الله فى بنود الفهم أول أركان البيعة العشرة :

« وزيارة القبور أياً كانت سنة مشروعة بالكيفية المأثورة ولكن الاستعانة بالمقبورين أياً كانوا ونداءهم لذلك ، وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد والنذر لهم وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والتمسح بها ، والحلف بغير الله وما يلحق بذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها . ولا نتأول لهذه الأعمال سداً للذريعة »(١) .

التمائم ... والكهانـة :

لقد جاء الإسلام ليحرر البشرية من كل مظاهر الجاهلية ، وليربط البشر بخالقهم ، فتحرر عقولهم من لوثات الفكر الجاهلى ، والخرافات والأساطير والترهات التى تثقل العقول وتخربها وتظلمها ، فتعمى أصحابها وتجعلهم حيارى يسيرون على غير هدى ...

جاء الإسلام ليحرر القلوب ويطهرها ويغرس فيها العبودية لله وحده بكل معانيها الشاملة ، بكامل الحب وغايته مع كامل الخضوع وقمته . وبذلك تنطلق القلوب ، وتنير العقول .. ويشعر المرء بالعزة والسؤدد . ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾(٢) .

من أجل ذلك جاء الإسلام بمحاربة مظاهر الجاهلية من تمائم

---

(١) مجموعة الرسائل (رسالة التعاليم) ص ٢٧٠ .

(٢) المنافقون : ٨ .

ورقى من غير القرآن .. ، وكهانة وعرافة ... وبمرور الزمن تعمل الشياطين عملها شياطين الإنس والجن ، فتوقع كثيراً من الأمة فى ذلك . فيبعث الله للأمة من يجدد لها أمر دينها . وكان من هؤلاء الإمامان : شيخ الإسلام ، والإمام الشهيد .

قول شيخ الإسلام :

بين شيخ الإسلام رحمه الله موقف الإسلام الحاسم من الكهانة والعرافة والتنجيم ... وحرمة هذه الأمور كلها ، وبين مايجوز ومالا يجوز من الرقى ..

كل ذلك بالأدلة الصريحة .

فقال رحمه الله بالنسبة للرقية :

« فى الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « لا بأس بالرقى مالم تكن شركاً »[١] .

فنهى عن الرقى التى فيها شرك ، كالتى فيها استعاذة بالجن .

كما قال تعالى : ﴿ **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً** ﴾[٢] .

ولهذا نهى العلماء عن التعازيم ، والإقسام التى يستعملها بعض الناس فى حق المصروع وغيره التى تتضمن الشرك . بل نهوا عن كل مالا يعرف معناه من ذلك خشية أن يكون فيه شرك ، بخلاف ماكان

(١) (م ٢٢٠٠) .

(٢) الجن : ٦ .

من الرقى المشروعة فإنه جائز »[١] .

وقد كان الرسول ﷺ يرقى نفسه وغيره . وكان الصحابة رضى الله عنهم يرقى بعضهم بعضاً ، ويرقون أولادهم ، ويعلمون الرقى الشرعية من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ويبين شيخ الإسلام رحمه الله موقف الإسلام من الدجالين الذين يدعون علم الغيب ، ويشتغلون بالتنجيم والكهانة والعرافة والطرق ...

وأن ذلك كله لا يحل ، ويذكر الأدلة على ذلك ، ويبين موقفنا من هؤلاء الدجالين ، وضرورة محاربتهم ...

فقال رحمه الله : « لا يحل شىء من ذلك ... وروى أبو داود فى سننه بإسناد حسن عن قبيصة بن مخارق عن النبى ﷺ قال : « العيافة والطرق والطيرة من الجبت »[٢] .

قال عوف راوى الحديث : العيافة زجر الطير ، والطرق : الخط فى الأرض . وقيل بالعكس ... وروى أحمد وأبو داود وابن ماجة وغيرهم بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد مازاد »[٣] .

(١) الفتاوى / جـ ١ ص ٣٣٦ .

(٢) أبو داود (٣٩٠٧) أحمد (٣ / ٤٧٧) .

(٣) أبو داود (٣٠٩٥) أحمد (١ / ٢٢٧ ، ٣١١) .

فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر وقد قال الله تعالى : ﴿ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾[1] وهكذا الواقع ، فإن الاستقراء يدل على أن أهل النجوم لا يفلحون لا فى الدنيا ولا فى الآخرة وروى أحمد ومسلم فى الصحيح ، عن صفية بنت عبيد ؛ عن بعض أزواج النبى ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال : « من أتى عرافاً فسأله عن شىء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً »[2] .

وروى أيضاً فى صحيحه عن معاوية بن الحكم السلمى قال : « قلت : يارسول الله ، إن قوماً منا يأتون الكهان . قال : « فلا تأتوهم »[3] .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « ثمن الكلب خبيث ، ومهر البغى خبيث ، وحلوان الكاهن خبيث »[4] وحلوانه الذى تسميه العامة « حلاوته » . ويدخل فى هذا المعنى مايعطيه المنجم وصاحب الأزلام التى يستقسم بها مثل الخشبة المكتوب عليها . أ ، ب ، ج ، د . والضارب بالحصى ونحوهم .

فما يعطى هؤلاء حرام . وقد حكى الإجماع على تحريمه غير واحد من العلماء : كالبغوى ، والقاضى عياض وغيرهما .

والنصوص عن النبى ﷺ وأصحابه وسائر الأئمة بالنهى عن

(١) طـه : ٦٩ .
(٢) مسلم (٢٢٣٠) .
(٣) مسلم (٢٢٢٨) .
(٤) البخارى (٢٢٣٧) مسلم (١٥٦٧) .

ذلك أكثر من أن يتسع هذا الموضوع لذكرها .

وقد تبين بما ذكرناه أن الأجرة المأخوذة على ذلك والهبة والكرامة : حرام على الدافع والآخذ . وأنه يحرم على الملاك والنظار والوكلاء إكراء الحوانيت المملوكة أو الموقوفة أو غيرها من هؤلاء الكفار والفساق بهذه المتعة إذا غلب على ظنهم أنهم يفعلون فيها هذا الجبت الملعون .

ويجب على ولى الأمر وكل قادر السعى فى إزالة ذلك ، ومنعهم من الجلوس فى الحوانيت أو الطرقات ، أو دخولهم على الناس فى منازلهم لذلك »[1] .

قول الإمام الشهيد :

لقد أسس الإمام الشهيد دعوته على الطهارة من هذه الأفكار المنحرفة وجعل من أصول الدعوة اعتناق العقيدة الصافية النقية والإعراض بل نبذ ومحاربة الانحراف العقدى .

فقال رحمه الله فى بنود ركن الفهم أول أركان البيعة العشرة :

« ٤ ــ والتمائم والرقى والودع والرمل والمعرفة والكهانة وادعاء معرفة الغيب ، وكل ماكان من هذا الباب منكر تجب محاربته « إلا ماكان آية من قرآن أو رقية مأثورة » . »[2] .

(١) الفتاوى / جـ ٣٥ ص ١٩٢ : ١٩٥ .
(٢) مجموعة الرسائل (رسالة التعاليم) ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

الأولياء وكراماتهم :

لقد بين الإمامان الجليلان من هم الأولياء ؟ والتقيا على التعريف القرآنى . وبينا كذلك ثبوت الكرامات لأولياء الله الصالحين كما دل على ذلك الآثار الصحيحة ، والوقائع الثابتة .

وحتى لا يقع أحد فى إفراط أو تفريط ، أو غلو أو تقصير ، فقد وضحا حقوق الأولياء ، وما يجب لهم وما لا يجب .

وبين رحمه الله أن من أصول أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء فقال :

« ومن أصول أهل السنة والجماعة : التصديق بكرامات الأولياء ، وما يجرى الله على أيديهم من خوارق العادات ، فى أنواع العلوم والمكاشفات ، وأنواع القدرة والتأثيرات ، كالمأثور عن سالف الأمم فى سورة الكهف وغيرها .

وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين ، وسائر قرون الأمة .

وهى موجودة فيها إلى يوم القيامة »(١) .

فكرامات الأولياء ثابتة فى هذه الأمة إلى يوم القيامة .

وقد ألف الشيخ كتاباً بعنوان : « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » . وقد فصل فيه القول .

(١) الفتاوى / جـ ٣ ص ١٥٦ .

فقال رحمه الله :

« فأولياء الله المتقون هم : المقتدون بمحمد ﷺ ، فيفعلون ما أمر به وينتهون عما نهى عنه وزجر . ويقتدون به فيما بين لهم أن يتبعوه فيه ، فيؤيدهم بملائكته وروح منه ، ويقذف الله فى قلوبهم من أنواره ، ولهم الكرامات التى يكرم الله بها أولياءه المتقين . وخيار أولياء الله كراماتهم لحجة فى الدين أو لحاجة بالمسلمين . كما كانت معجزات نبيهم ﷺ كذلك . وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسول الله ﷺ فهى فى الحقيقة تدخل فى معجزات الرسول ﷺ ...(١) .

وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جدا » .

وأخذ يذكر نماذج مما حدث للصحابة ومن تبعهم كما ثبت عنهم مثل ماحدث للصديق ، وأسيد بن حضير ، وخبيب بن عدى وعامر بن فهيرة ، وأم أيمن ، وخالد بن الوليد ، وعمر بن الخطاب ، وسعيد بن زيد ، وسعد بن أبى وقاص ... والحسن البصرى ، وصلة بن أشيم ، وسعيد بن المسيب .

وبين رحمه الله شرط الكرامة وسببها والفرق بينها بين الخوارق الشيطانية . فقال :

« وبين كرامات الأولياء وما يشبهها من الأحوال الشيطانية

(١) مجموع الفتاوى جـ ١١ ص ٢٧٥ .

فروق متعددة :

منها : أن كرامات الأولياء سببها الإيمان والتقوى . والأحوال الشيطانية سببها مانهى الله عنه ورسوله »[1] .

وهذا الفرق : الإيمان والتقوى هو جماع الفروع كلها .

قول الإمام الشهيد :

قال الإمام الشهيد رحمه الله مبيناً من هم الأولياء ؟ وما صفاتهم ؟ وهل الكرامات ثابتة ؟ وما واجبنا نحوهم ؟ وما حقوقهم ؟ . كل ذلك بعبارة موجزة جامعة . فقال فى بنود الفهم أول أركان البيعة العشرة :

« ١٣ ـــ ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم قربة إلى الله تبارك وتعالى ، والأولياء هم المذكورون فى قوله تعالى : ﴿ **الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾[2] .

والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية ، مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فى حياتهم أو بعد مماتهم ، فضلاً عن أن يهبوا شيئاً من ذلك لغيرهم »[3] .

ثم بين بعد ذلك أن الاستعانة بالمقبورين ودعاءهم ... كبائر كما مر قريباً .

---

(١) الفتاوى / جـ ١١ ص ٢٧٤ : ٢٨٧ ، ٣٠٢ .

(٢) يونس / ٦٣ .

(٣) مجموعة الرسائل (رسالة التعاليم) ص ٢٧٠ .

موقف الإمامين من الصفات

لقد تحدث كل من الإمامين عن توحيد الأسماء والصفات ، كل إمام بأسلوبه ، وطريقة عرضه ، فمنهم المفصل المطول ومنهم الموجز المختصر .

وذلك حسب حاجة البيئة التى يعيش فيها كل واحد . وليس فى التفصيل المطول عيب لذاته ولا فى الإيجاز المختصر قدح لذاته فالمقام هو الذى يحدد الأولى والأفضل . والمهم ألا يترك شىء من الحقائق الضرورى معرفتها دون التنبيه عليها .

هذا هو المهم ، ولا عبرة بعد ذلك بالإطالة أو الإيجاز فالذى يحدد هذا كما قلت : هو المقام .

على هذا الأساس الذى يتفق عليه العقلاء نبنى الكلام فنقول :

لقد تحدث شيخ الإسلام رحمه الله عن هذا الجانب ففصل وطول ، وأفاض وأجاد ، وكتب الرسائل الكثيرة ، والمجلدات العديدة فجزاه الله خيراً .

ولقد تحدث الإمام الشهيد رحمه الله عن هذا الجانب فأوجز واختصر ، وجمع فأوعى ، ولم يكتب إلا صفحات محدودة ، وورقات معدودة تقرأ فى جلسة يسيرة فجزاه الله خيراً .

المهم أن نسأل أنفسنا بتجرد وإخلاص :

هل كان عرض كل منهما يتناسب مع البيئة والمقام أو لا ؟ .

وهل ترك أحد منهما شيئاً من الحقائق الواجب معرفتها، والضرورى الوقوف عليها أو لا ؟ .

وهل التقيا فى هذه الحقائق أو لا ؟ .

لقد دار لغط كثير حول هذه المسائل، فضلت أفهام، وزلت أقدام، وثار خصام، وتنافرت قلوب، وتراشقت عيوب وكثر الطعن والتجريح ...

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وهذه الأمور مما تدمى القلب، وتسيل الدمع، وتقض المضجع، وتؤرق المنام، وتغضب الحليم ..

ومع هذا فلن تخرجنى هذه الأمور فى هذا المقام عن مناقشة تلك المسائل مناقشة علمية أقصد بذلك الوصول إلى الحق، ووضع الأمور فى نصابها، وتقدير الأمور بقدرها، دون تعصب لأحد فإن كليهما إمام قد اجتهد وما قصر فى البذل . وقد أفضى كل منهما إلى ماقدم فالمصيب له أجران، والمخطىء له أجر وخطؤه مغفور له . فضلاً من الله ونعمة . فرحمة الله ورضوانه عليهما .

وقبل مناقشة هذه المسائل أرى من الضرورى أن أمهد لذلك بجملة حقائق ضرورية قبل الوصول إلى النتائج النهائية فليشرح القارىء صدره، وليقرأ بتجرد وتمهل وصبر، ولا يعجل ولا يضجر .

وسأحاول أن أجعل الأسلوب سهلا واضحاً ليرتفع الغموض

والإشكال ماوسعنى البيان .

والله المستعان، وعليه التكلان . فإن أصبت فمن الله وحده وإن أخطأت فمن نفسى ومن الشيطان .

حقائق هامة جداً :

لقد احتككت بكثير، واستمعت إلى كثير ممن خاض فى موقف الإمامين رحمهما الله، فذم وقدح، وطعن وجرح . فوجدت أمراً عجيباً، وشيئاً غريباً، وحقائق غائبة، غائبة جداً .

فأخذت أتحسس وأسأل هؤلاء وأتعرف عن مدى وقوفهم على هذه الحقائق . فأدركت غيابها عن الغالبية العظمى . وكان هذا الغياب هو أحد الأسباب الكبرى — إن لم يكن أكبرها — فى هذا الخوض . وربما كانوا معذورين فى غياب هذه الحقائق عنهم، بل إننى أتمس لهم العذر فى ذلك .

وقد يندهش المرء ويتساءل كيف غابت هذه الحقائق عنه ويندم . وقد يندهش فيصدم وينكر .

فعلى المرء أن يتروى ويصبر، ويتمهل فلا يعجل .

وقد عفا الله عما سلف ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**﴾[1] .

والآن أسرع فى هذه الحقائق . ووصية أخيرة قبل الشروع .

---

(١) الإسراء : ٨٥ .

قد لا يجد المرء بغيتة فى بعض هذه الحقائق ، بحيث لا يتبدى وضوح هذا البعض . ولكن البعض الآخر واضح جلى .

فعليه أن يقبل مااقتنع به ، ووضح له ، ورضى عنه وسيجد فيهاعوناً كبيراً على الوصول للحق بعون الله .

وليس له أن يرفض الكل من أجل الجزء .

بل ينبغى أن يكون عادلاً غير جائر ، يحكم بالحق والميزان ويعطى كل ذى حق حقه .

وليكن شعاره الاهتداء بقول الله تعالى : **﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين . إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾**[1] .

﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾[2] .

مسائل العقيدة أصول وفروع :

مما لا شك فيه أن العقيدة هى أساس الدين ، وأصله المتين ، وعليها يقوم صرح الإسلام ، ويشيد البنيان . وبثباتها يثبت ، وبصلاحها يصلح .

---

(١) النساء : ١٣٥

(٢) المائدة : ٨ .

فكرياً وعقلياً وأشر بها قلبياً وروحياً وطقها جوارح وعملياً أصولاً وفروعاً ، جليلها ودقيقها .. عندما عاشها كذلك حية نابضة أثمرت أينع الثمار ، وآتت أطيب الأكل ، فعزوا وسادوا وسعدوا واهتدوا إلى كل خير . « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى » وحفظ لنا التاريخ أروع الأمثلة التى عرفتها الإنسانية وسطر حياتهم بأحرف من نور تضىء قلب من ينظر فيها . وما سر هذه العظمة ؟ .

إنه العقيدة الحية النابضة المثمرة .

تلك حقيقة لا مراء فيها ولا شك .

لذلك شاع عند العلماء تسمية العقيدة وما يتعلق بها من مسائل ، بأصول الدين » .

تسمية العقيدة بأصول الدين تشريفية :

واستقرت هذه التسمية على مر الأجيال إلى عصرنا هذا وهنا حقائق هامة ينبغى الانتباه إليها وهى :

أن هذه التسمية لم تعهد فى القرون الثلاثة الفاضلة .

إنها تسمية جديدة جرت على لسان علماء الكلام ابتداءً وبعض الفقهاء حيث قسموا مسائل الدين إلى : أصول وتعنى مسائل العقيدة وفروع وتعنى مسائل الأحكام العملية (الفقه) .

هذا التقسيم راج وانتشر واستقر عند أهل السنة أيضاً .

---

(١) طه : ١٢٣ .

لكن هناك فرق بين إطلاق أهل السنة ، وعلماء الكلام وهذه هى الحقيقة الغائبة .

فأهل السنة عندما يطلقون تسمية أصول الدين على العقيدة يريدون بذلك تشريف العقيدة ، وبيان عظيم مكانتها ، وسمو منزلتها فى هذا الدين . ولا يقصدون بذلك أن كل مسائل العقيدة أصول بل إن فيها الفروع أيضاً .

وكذلك عندما يطلقون على المسائل العملية (الفروع) .

فإنهم لا يقصدون أن كل مسائلها فروع بل فيها الأصول ، وفيها الفروع .

فالأمور الجليلة الكبيرة من العقيدة والفقه : أصول والأمور الدقيقة الخفيفة من العقيدة والفقه : فروع . هذه هى نظرة علماء السلف رحمهم الله .

وهذه نظرة دقيقة رشيدة حفظت لمذهب أهل السنة استقامته واعتداله ، وعصمتهم من السقوط فى هاوية التكفير السحيقة . وحفظتهم من رمى الغير بسهام الزيغ والضلال والزعزعة والميوعة بدون حق .

فالإسلام عظيم متين لا يهدم بسهولة لمجرد خلاف أو زلة فى مسألة من مسائل العقيدة ، دون نظر إلى حجم هذه المسألة ووزنها .

فمذهب السلف : يزن الأمور ثم يصدر الأحكام بالعدل والميزان .

ومذهب المبتدعة : لا يزن الأمور ولا يميز بين جليلها ودقيقها .. بل يبادر إلى رمى المخالفين بسهام التكفير والتضليل ...

وهذه الحقيقة ليست استنباطاً سبقت إليه ، وإنما هى مدونة فى كتب عالم جليل من علماء السلف وإمام عظيم من أئمتهم .

إنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

قال رحمه الله :

« إن المسائل الخبرية قد تكون بمنزلة المسائل العملية وإن سميت تلك « مسائل أصول » . .

وهذه « مسائل فروع » .

فإن هذه تسمية محدثة ، قسمها طائفة من الفقهاء والمتكلمين ، وهو على المتكلمين والأصوليين أغلب ... » .

ثم بين مذهب السلف وضرب على ذلك أمثلة .

فقال رحمه الله :

« بل الحق أن الجليل من كل واحد من الصنفين « مسائل أصول » والدقيق « مسائل فروع » .

فالعلم بوجوب الواجبات كمبانى الإسلام الخمس ، وتحريم المحرمات الظاهرة المتواترة كالعلم بأن الله على كل شىء قدير ، وبكل شىء عليم ، وأنه سميع بصير ، وأن القرآن كلام الله ، ونحو ذلك من القضايا الظاهرة المتواترة ولهذا من جحد تلك الأحكام العملية المجمع

حقيقتان هامتان جداً :

بعد أن بين شيخ الإسلام أصل تسمية مسائل العقيدة بمسائل الأصول ، ثم ذكر الصواب والحق الذى ينبغى أن تطلق عليه هذه التسمية .

بعد ذلك أعطانا حقيقتين هامتين جداً بالنسبة لمسائل العقيدة ، وهما تعصمان المرء من السقوط فيما يسقط فيه أهل البدع والأهواء .

وهاتان الحقيقتان هما :

الأولى : مسائل العقيدة ليست على وتيرة واحدة من حيث القطعية والظنية .

فمنها القطعى الجلى المجمع عليه المدعم بالأدلة المتواترة الصريحة الدلالة التى ليس لها معارض ولا يتطرق إليها الاحتمال من ناحية الشرع أو العقل أو اللغة .

ومنها الظنى الخفى الدلالة ، الذى يتطرق إليه الاحتمال من ناحية الشرع أو العقل أو اللغة سواء كان تطرقاً سائغاً أو غير سائغ فلكل حكمه وقدره .

وينبنى على هذه الحقيقة الحقيقة الثانية .

الثانية : وهى أن الاجتهاد وارد فى بعض مسائل العقيدة وليس

(١) الفتاوى / جـ ٦ ص ٥٦ ، ٥٧ .

حكم المجتهد فيها على درجة واحدة ، فقد يكون مأجوراً ، أو مأزوراً ، أو فاسقاً ، أو معفواً عنه ..

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : « وقولنا : إنها — أى المسائل الخبرية — قد تكون بمنزلتها — أى المسائل العملية — يتضمن أشياء : منها : إنها تنقسم إلى قطعى وظنى .

ومنها : أن المصيب وإن كان واحداً ، فالمخطىء قد يكون مذنباً وقد يكون فاسقاً وقد يكون كالمخطىء فى الأحكام العملية »[1] .

بعد عرض هذه الحقائق بوضوح وجلاء كما ذكرها الإمام الجليل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، ينبغى على المرء أن يدقق فى نظرته لمسائل العقيدة ليعرف وزن المسألة وقدرها حتى إذا حكم — ولم يكن بد من الحكم — كان حكمه عادلاً موزوناً بميزان الشرع العادل . ولا يستخفنه لأول وهلة أن يرى رأى الغير مخالفاً لرأيه المقتنع به ، المجلى عنده ، المطمئن إليه . بل عليه التريث والحلم فيقلب الرأى على وجوهه ويتأنى ويتمهل ، ويتحلى فى ذلك بتقوى الله . لينكشف له الحكم الدقيق ، والله المعين .

فاحفظ ياأخى العزيز هذه الحقائق جيداً فإنها والله كنوز نفيسة تغنيك وعلامات ثابتة تهديك ونور يضيىء لك الطريق وميزان عادل دقيق فكن دائماً على ذكر منها ، واستحضار لها ، ولا تغيبن عن بالك ، فطريق الدعوة قد امتلأ بالجدل العقيم المفلس والمفارق الكثيرة المحيرة .

(١) الفتاوى / جـ ٦ ص ٥٧ .

النهى عن التفكر فى ذات الله تبارك وتعالى :

لقد حث الإسلام على النظر ، وأمر بالتفكر فى الكون والحياة ، والأنفس والآفاق ، لأن فى ذلك مصالح العباد ، والعون على الانتفاع بما سخر الله لهم ، وتحقيق القيام بواجب الخلافة فى الأرض .

وقبل هذا زيادة الإيمان بالله تبارك وتعالى .

ونهى الإسلام عن التفكر فيما لا تحيط به العقول ، ولا تدرك كنهه الأفهام .

وفى ذلك حفاظ عليها من الضلال ، وصيانة لها من تبديد الطاقات .

قال الإمام الشهيد رحمه الله : « قد ضل أقوام تكلموا فى ذات الله تبارك وتعالى ، فكان كلامهم سبباً لضلالهم وفتنتهم واختلافهم ، لأنهم يتكلمون فيما لا يدركون تحديده ، ولا يقدرون على معرفة كنهه ، ولهذا نهى رسول الله ﷺ عن التفكر فى ذات الله ، وأمر بالتفكر فى مخلوقاته .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن قوماً تفكروا فى الله عز وجل ، فقال النبى ﷺ :

« تفكروا فى خلق الله ، ولا تتفكروا فى الله ، فإنكم لن تقدروا قدره » .

قال العراقى : رواه أبو نعيم فى الحلية بإسناد ضعيف ورواه

الأصبهانى فى الترغيب والترهيب بإسناد أصح منه ورواه أبو الشيخ كذلك . وهو على كل حال صحيح المعنى .

وليس ذلك حجراً على حرية الفكر ، ولا جموداً فى البحث ، ولا تضيقاً على العقل ، ولكنه عصمة له من التردى فى مهاوى الضلالة ، وإبعاد له عن معالجة أبحاث لم تتوفر له وسائل بحثها ، ولا تحتمل قوته مهما عظمت علاجها . وهذه هى طريقة الصالحين من عباد الله العارفين بعظمة ذاته ، وجلال قدره .. فاحصر همتك فى إدراك عظمة ربك بالتفكر فى مخلوقاته ، والتمسك بلوازم صفاته »[1] .

النهى عن الكلام فيما ليس تحته عمل :

لقد جاء الإسلام ليحفظ الأوقات ، ويوجه الطاقات ، فيمنعها من التبدد ويصونها من الضياع .

فكان من قواعده .. وتوجيهاته :

عدم الكلام فيما ليس تحته عمل ، وليس وراءه ثمرة تجنى ولا فائدة ترجى ..

فكان علماء السلف الصالح رضوان الله عليهم يجتنبون الجدل فى المسائل التى لا تؤثر فى عمل الإنسان ، وتوجيهه فى الحياة اللهم إلا أن يضطروا فلا بد ولا مفر .

قال الإمام الشاطبى رحمه الله :

---

(١) مجموعة الرسائل (رسالة العقائد) ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

« كان مالك بن أنس يقول : الكلام فى الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه ، وينهون عنه ، نحو الكلام فى رأى جهم والقدر ، وكل ماأشبه ذلك .

ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل . فأما الكلام فى الدين ، وفى الله عز وجل فالسكوت أحب إلى لأنى رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام فى الدين إلا فيما تحته عمل .

قال ابن عبد البر :

قد بين مالك رحمه الله أن الكلام فيما تحته عمل هو المباح عنده ، وعند أهل بلده — يعنى العلماء منهم .

وأخبر أن الكلام فى الدين نحو القول فى صفات الله وأسمائه ، وضرب مثلاً نحو رأى جهم والقدر . قال : والذى قاله مالك عليه جماعة الفقهاء قديماً وحديثاً .

من أهل الحديث والفتوى .

وإنما خالف فى ذلك أهل البدع .

وأما الجماعة فعلى ماقاله مالك رحمه الله ، إلا أن يضطر أحد إلى الكلام ، فلا يسعه السكوت إذا طمع فى رد الباطل ، وصرف صاحبه عن مذهبه ، وخشى ضلالة عامة ، أو نحو ذلك »[١] .

---

(١) الاعتصام للشاطبى / جـ ٢ ص ٣٣٢ .
جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر جـ ٢ ص ٩٥ .

هكذا ياأخى مذهب السلف .

الكلام فيما تحته عمل والكف عما ليس تحته عمل إلا فى حالة لضرورة .

لقد كانوا قوماً عمليين ، لا جدليين نظريين . فالتزم هذه القاعدة الحقيقية فى حياتك ينصلح لك أمرك .

فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها . فها أنت ذا قد علمت منهجهم فاستقم .

واجبنا نحو الصفات :

لقد ورد فى القرآن الكريم والسنة المطهرة صفات لله عز وجل فهو غفور رحيم ، سميع بصير ، عليم حكيم ، قوى عزيز ، الرزاق القدير ... فالواجب الأسمى ، والمطلب الأسنى أن تتوجه الجهود إلى معرفة آثارها فى حياة المرء والكون من حوله ، والتمسك بلوازمها وما توجبه عليه .

هذا هو الواجب الأسمى ، وبتحقيقه والتزامه يعز المرء فى دنياه ، ويفوز فى أخراه .

يقول الإمام الشهيد :

« والذى يجب أن يتفطن له المؤمن : أن المعنى الذى يقصد باللفظ فى صفات الله تبارك وتعالى يختلف اختلافاً كلياً عن المعنى الذى يقصد بهذا اللفظ عينه فى صفات المخلوقين .

فأنت تقول : الله عالم . والعلم صفة لله تعالى ، وتقول : فلان عالم ، والعلم صفة لفلان من الناس . فهل مايقصد بلفظة العلم فى التركيبين واحد ؟ حاشا أن يكون كذلك .

وإنما علم الله تبارك وتعالى علم لا يتناهى كماله ، ولا يعد علم المخلوقين شيئاً إلى جانبه وكذلك الحياة ، وكذلك السمع ، وكذلك البصر ، وكذلك الكلام ، وكذلك القدرة والإرادة .

فهذه كلها ، مدلولات الألفاظ فيها تختلف عن مدلولاتها فى حق الخلق من حيث الكمال والكيفية اختلافاً كلياً . لأنه تبارك وتعالى لا يشبه أحداً من خلقه . فتفطن لهذا المعنى فإنه دقيق . ولست مطالباً بمعرفة كنهها . وإنما حسبك أن تعلم آثارها فى الكون . ولوازمها فى حقك . والله نسأل العصمة من الزلل وحسن التوفيق »[1] .

هذا يأخى كلام نفيس فتأمله وتدبره . فإن أضواء الحكمة تتخلله وأنوار الإيمان تظلله . وكما أوصيتك سابقاً بالتأنى والتريث فارجع إليه واقرأه على مهل .

حكم المفاتحة فى الصفات :

عرفنا يأخى العزيز فيما سبق أن منهج السلف الصالح هو الكلام فيما تحته عمل ، وله فى الواقع والحياة أثر ، وترك الكلام فيما ليس تحته عمل سواء فى مسائل العقيدة أو مسائل الفقه اللهم إلا فى حالة الاضطرار .

(١) مجموعة الرسائل (العقائد) ص ٣١٧ .

كما عرفنا أن المطلب الأسمى ، والواجب الأسنى بالنسبة لصفات الله العلا هو التعرف على آثارها فى الكون ، ولوازمها فى حق المرء .

والآن نأتى لمحاولة معرفة أمر هام ، وحقيقة جليلة يرشدنا إليها شيخ الإسلام وهى منهج علماء السلف الصالح من الصحابة الكرام . والتابعين لهم بإحسان ..

وهى والله حقيقة نفيسة جديرة بأن تتفتح لها العقول وتتهيأ لها الأذهان ، وتصغى إليها القلوب بوعى وانتباه .

فإن أضواء الحكمة تتخللها وأنوار الإيمان تظللها فعليك يأخى بتأملها وتدبرها . ألا وهى : حكم مفاتحة العوام وأشباههم فى الصفات التى تكلم فيها السلف والخلف واختبار الناس فيها ، وترتيب أحكام على ذلك ؟

أقول : لقد اتهم شيخ الإسلام رحمه الله بإثارة البلبلة الفكرية ، والحيرة النفسية عند الناس لإكثاره الكلام فى آيات وأحاديث الصفات .

فأجاب شيخ الإسلام على هذه التهمة بما يدفعها بالعدل والميزان ، وشرح حقيقة موقفه فأعطانا بذلك فوائد جليلة .

فقال رحمه الله :

« وأما قول القائل : لا يتعرض لأحاديث الصفات وآياتها عند العوام فأنا مافاتحت عامياً فى شىء من ذلك قط .

أما الجواب بما بعث الله به رسوله للمسترشد المستهدى فقد قال

النبى ﷺ :

« من سئل عن علم يعلمه فكتمه ، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار »(١) .

وقال تعالى : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون** ﴾(٢) .

ولا يؤمر العالم بما يوجب لعنة الله عليه . والله أعلم . والحمد لله رب العالمين »(٣) .

وقال أيضاً رحمه الله عليه :

« أنا مابغيت على أحد ، ولا قلت لأحد : وافقنى على اعتقادى ، وإلا فعلت بك ، ولا أكرهت أحداً بقول ولا عمل . بل ماكتبت فى ذلك شيئاً قط إلا أن يكون جواب استفتاء بعد إلحاح السائل واحتراقه ، وكثرة مراجعته . ولا عادتى مخاطبة الناس فى ذلك ابتداء »(٤) .

الله أكبر ياإخوانى ، إنها الحكمة والله ، هذا هو منهج السلف ، وحكمة العلماء المخلصين ، وحرص الدعاة الواعين على ألفة القلوب

---

(١) ابو داود (٣٦٥٨) الترمذى (٢٦٤٩) ابن ماجة (٢٦١) .

(٢) البقرة / ١٥٩ .

(٣) الفتاوى / جـ ٥ ص ٢٦٦ .

(٤) الفتاوى / جـ ٣ ص ٢٤٣ .

ووحدتها ، وجمع الشمل دون إضاعة للحق ولا بلبلة للفكر .

هذا هو منهج السلف :

عدم مفاتحة الناس ولا مخاطبتهم فى ذلك ابتداءً اللهم إلا عند استفتاء السائل الحائر المحترق الملح .

أما إذا كانت القضية ساكنة فلا تثار ولا تحرك لأن الفطرة تهتدى إلى الحق .

وهذا الذى قاله شيخ الإسلام قد قاله غيره من العلماء قبله ولولا خشية الإطالة لذكرته ، ولكن فى قول شيخ الإسلام غنية وكفاية .

فأذكرك ياأخى العزيز بما تواصينا به من قبل بالقراءة المتأنية ، والتريث والتمهل . والتجرد لله تهدى للصواب ودعك من المقررات المسبقة واقرأ بصدق وإخلاص : ﴿ **إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً** ﴾(١) .

سبب إطالة شيخ الإسلام :

لعل القارىء يندهش من الحقيقة السابقة ويعجب أشد العجب .

وقد ينقدح فى نفسه هذا الحوار أو السؤال فيقول : إذا كان منهج شيخ الإسلام رحمه الله هو عدم مفاتحة الناس إبتداء فى تلك المسائل . فكيف بنا نرى المؤلفات العديدة ، والرسائل الكثيرة ،

---

(١) الأنفال : ٢٩ .

والمجلدات الضخمة فى هذا الباب ؟ . ماسبب ذلك ؟ لماذا أطال شيخ الإسلام رحمه الله وأكثر التأليف فى هذا المجال ؟ .

هذا سؤال وارد ومطروح فعلاً . والإجابة عليه سهلة ميسورة ، واضحة جلية ، قريبة جداً إلى المرء من أنفه . ولكى تعرف الإجابة بنفسك يأخى العزيز أرشدك إلى شىء بسيط غير معقد ، قريب غير بعيد ، يسير غير عسير ..

فأقول لك : ادرس حياة شيخ الإسلام رحمه الله . ولا أعنى بحياته ، فكره وآرائه وأقواله فذلك لا يجيبك على تساؤلك .

وإنما أعنى بحياته : ظروف عصره الفكرية والسياسية والاجتماعية والدينية ...

وأنواع الطوائف الموجودة فى هذا العصر .. والصراعات الفكرية القائمة على قدم وساق .. وأخلاقه السنية وهمته العلية وحسد الناس له ، وإغراءهم به لإيذائه ، والتحريض عليه ، وإثارة الشبهات حوله بالباطل للنيل منه .. فكان الشيخ يصبر الصبر الجميل ، ويصفح الصفح الجميل ، وما يتكلم ويرد على ذلك .

« إلا أن يكون جواب استفتاء بعد إلحاح السائل واحتراقه ، وكثرة مراجعته » .

وقد كانت تحدث نزاعات طويلة تؤدى إلى الفرقة والخصام وقريب الاقتتال .. فكان شيخ الإسلام يبعث بالأجوبة النافعة المفصلة الشافية .

وكان يدعى إلى المناظرات ويتهم بالباطل فما كان يملك إلا الإجابة .

وكانت المناظرات تدور وتطول وتكتب وتسجل ويدلى كل امرىء بحجته ويردها الآخر ويبين لوازم قوله الباطلة ، والآخر يدفع ويرد ويلزم خصمه ... وهكذا والكتاب يسجلون ويكتبون . فكان هذا التراث العريض ، والمؤلفات الذاخرة ، والمجلدات الضخمة .

وكان شيخ الإسلام يصدر الفتاوى التى أوصله إليها اجتهاده دون إطالة ، وأحياناً كانت تخالف من سبقوه أو عاصروه ، ولا يوجب على الناس الأخذ برأيه ، ولا يلزمهم به ولا يكرههم عليه ، لأنه يعلم ماالذى يكره عليه المرء ومالا يكره .

ويفرق بين مايدعى إليه المرء بلطف وما يلزم به .. فكان بعض علماء عصره يضيقون به فيشنعون عليه فكان شيخ الإسلام يضطر إلى بيان رأيه بمزيد من الإيضاح فيكتب الكتَّاب ويسجلون ويرد الخصوم عليه فيرد عليهم وهكذا .

● **فالخلاصـــة :**

إن سبب الإطالة هو كثرة الاستفتاءات الحارة الملحة ، وكثرة المناظرات المطولة التى فيها الإدلاء بالحجج لتدعيم الرأى ، وتفنيد رأى الغير وبيان لوازمه الفاسدة لإسقاطه .. وتدوين ذلك .

ولم تكن الإطالة لأن هذه المسائل تحتاج إلى إطالة ابتداء وإلا فسيرة الصحابة الكرام بين أيدينا اليوم ماثلة كأنهم يعيشون معنا ،

وتاريخهم مدون ولله الحمد ، وأقوالهم موجودة .

فهل تكلموا فى شىء من ذلك ابتداء ؟ أريحك يا أخى وأقول : لا . ولعلك تقول : لماذا ؟

فأقول : لأن الفطرة تهتدى إلى هذا الحق بسهولة ولأن الحق مغروس فى الفطرة بفضل الله تعالى . والقلب يطمئن بسهولة للإجمال فى هذا الباب . أما عندما يوجد المتجاوزون للحدود المتنطعون الخارجون عن منهج السلف الفطرى ، فيثيرون الشكوك ، ويبلبلون الأفكار ، ويحدثون الفتن التى تريد إخراج الناس عن دينهم ، وفطرتهم السوية .

هنا يأتى دور مناظرة هؤلاء المتنطعين المجافين لمنهج السلف ، يناظرون لإسكات الفتنة ، ورد العدوان ، وإرشاد الحيران .

أما غير ذلك فلا ، لأن الحق مغروس فى الفطرة ، ولا يحسن الابتداء ، لأن المرء قد يتكلم فى مسألة صحيحة لكن لا يحسن عرضها وبيانها . فيورث بذلك حيرة وشكاً ، وفتنة وقلقاً لا يستطيع إسكانه ولا إذهابه .

والمرء فى غنى عن هذه المغامرة . فلماذا يقامر ويغامر ؟

بين السلف والخلف :

لقد عاش الجيل الأول الإسلام على أحسن حال ، فتلقى عقيدته وشريعته ، وقيمه ومبادئه ، وكل مقومات حياته من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

وكانت تدور بينهم أحياناً بعض المناقشات فى المسائل الخبرية والمسائل العملية وتختلف آراؤهم فى ذلك ، ولكن دون أن يحدث بينهم فرقة ولا تنافر قلوب ، بل كانوا محافظين على أخوتهم وألفتهم .

واستمر الأمر على ذلك فى القرون الثلاثة المفضلة .

ثم انتشرت رقعة الدولة الإسلامية ، ودخل فى الدين أناس جدد لهم عقائد موروثة ، وكان منهم المؤمن الصادق ، والمنافق الكاذب .

فبدأت الفتن تطل بقرنها ، وتشرئب بأعناقها .

وكان من كبرى الفتن ، فتنة ترجمة الفلسفات الإغريقية اليونانية البشرية الأرضية ، وجلبها إلى بلاد الإسلام ، فنالت إعجاب البعض فتقبلوها ، وخلطوها بالمعين الصافى ، والمنهل العذب .

وانفتح باب الفتنة فى مسائل العقيدة وغيرها .

فظهرت آراء جديدة ، وأقوال غريبة ، ونشط الزنادقة ، وبثوا شبهاتهم ، وروجوا لباطلهم فتبلبلت عقول الكثير وأفكارهم ، وثارت شكوك ...

وكان من بين المسائل التى دخلتها الفلسفة اليونانية المذمومة ، مسألة صفات البارى تبارك وتعالى .

وثار خصام وعراك ، ودارت مناقشات ومناظرات ، وأدلى كل بدلوه .

وكان الناس فى ذلك أصنافاً :

فمنهم الزنديق المنافق الذى يبغى هدم الدين .

ومنهم الجاهل المخدوع .

ومنهم المستقيم .

وأنتجت هذه المعارك مذاهب شتى ومذاهب عدة :

منها الصواب الذى تدعمه الأدلة الشرعية ..

ومنها الباطل الذى لا حظ له من الأدلة الشرعية ..

ومنها الخليط منهما ، فبعضها يغلب عليها هذا وبعضها ذلك ..

ونظراً لأن المقام ليس مقام تفصيل فسأنقل لك خلاصة الآراء حتى نخلص إلى موضوعنا .

يقول الإمام الشهيد رحمه الله :

« انقسم الناس فى هذه المسألة على أربع فرق :

١ ــ فرقة أخذت بظواهرها كما هى ، فنسبت إلى الله وجهاً كوجوه الخلق ، ويداً أو أيدياً كأيديهم ، وضحكاً كضحكهم . وهكذا حتى فرضوا الإله شيخاً ، وبعضهم فرضه شاباً .

وهؤلاء هم المجسمة والمشبهة ، وليسوا من الإسلام فى شىء وليس لقولهم نصيب من الصحة .

ويكفى فى الرد عليهم ، قول الله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شىء**

وهو السميع البصير ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ **قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد** ﴾(٢) .

٢ ــ فرقة عطلت معانى هذه الألفاظ على أى وجه ، يقصدون بذلك نفى مدلولاتها مطلقاً عن الله تبارك وتعالى ، فالله تبارك وتعالى عندهم لا يتكلم ولا يسمع ولا يبصر : لأن ذلك لا يكون إلا بجارحة ! ، والجوارح يجب أن تنفى عنه سبحانه .

فبذلك يعطلون صفات الله تبارك وتعالى ويتظاهرون بتقديسه .

وهؤلاء هم المعطلة . ويطلق عليهم بعض علماء تاريخ العقائد الإسلامية : الجهمية .

ولا أظن أحداً عنده مسكة من عقل يستسيغ هذا القول المتهافت ! وهاقد ثبت الكلام والسمع والبصر لبعض الخلائق بغير جارحة . فكيف يتوقف كلام الحق تبارك وتعالى على الجوارح ؟! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

هذان رأيان باطلان لا حظ لهما من النظر .

وبقى أمامنا رأيان هما محل أنظار العلماء فى العقائد . وهما رأى السلف ، ورأى الخلف »(٣) .

---

(١) الشورى : ١١ .

(٢) الإخلاص : ١ : ٤ .

(٣) مجموعة الرسائل (العقائد) ص ٣٢٤ : ٣٢٥ .

إن تعريف الإمام الشهيد للفرقتين الأوليين (المجسمة والمعطلة) ونقده لهما واضح جلى .

وهو يتفق ويلتقى تماماً مع شيخ الإسلام ابن تيمية .

والآن يأتى السؤال الهام الذى اشتاقت إليه النفوس ، وهو :

هل التقيا فى موقفهما من السلف والخلف ؟ .

وللإجابة على هذا أبدأ بعرض تعريفهما لمذهب السلف ومذهب الخلف ثم بيان المختار . وهل يلتقيان عليه ؟ .

تعريف شيخ الإسلام :

كتب شيخ الإسلام رحمه الله الرسائل العديدة فى هذا الموضوع وملخص تعريفه فى مذهب السلف هو كما جاء فى قوله :

« ومذهب السلف هو أن يوصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ، لا يتجاوز القرآن والحديث . وهو بين التعطيل والتمثيل . فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه ، كما لا يمثلون ذاته بذوات خلقه . ولا ينفون عنه ماوصف به نفسه أو وصفه به رسوله »(١) .

وعند الحديث عن مذهب الخلف فقد جمع فيه شيخ الإسلام كل من خرج عن مذهب السلف على تفاوتهم .

فأشدهم من ينفى الأسماء والصفات ، ويليهم من يثبت الأسماء

(١) أنظر الفتاوى ٥ / ٢٦ ، والحموية ص ١٦ .

دون ماتتضمنه من الصفات ، وأخفهم من يثبت الأسماء وبعض الصفات ويؤول البعض الآخر »(١) وقد يطلق كثيراً هذا المصطلح على الفريق الثالث .

تعريف الإمام الشهيد :

ويعرف الإمام الشهيد رحمه الله بمذهب السلف والخلف فيقول :

« أما السلف رضوان الله عليهم فقالوا : نؤمن بهذه الآيات والأحاديث كما وردت . ونترك بيان المقصود منها لله تبارك وتعالى . فهم يثبتون اليد والعين والأعين والاستواء والضحك والتعجب ... إلخ .

وكل ذلك بمعان لا ندركها . ونترك لله تبارك وتعالى الإحاطة بعلمها . لا سيما وقد نهينا عن ذلك فى قول النبى ﷺ : « تفكروا فى خلق الله ، ولا تتفكروا فى الله ، فإنكم لن تقدروه قدره » .

قال العراقى : رواه أبو نعيم فى الحلية بإسناد ضعيف . ورواه الأصبهانى فى الترغيب والترهيب بإسناد أصح منه ، ورواه أبو الشيخ كذلك .

مع قطعهم رضوان الله عليهم بانتفاء المشابهة بين الله وبين الخلق »(٢) .

(١) أنظر الرسالة التدمرية ٧ ، ٨ ، ١٣ ، والحموية ٦ ، ٧ .

(٢) مجموعة الرسائل (العقائد) ص ٣٢٥ .

هذا هو تعريف الإمام الشهيد لمذهب السلف كما فهمه ثم شرع فى ذكر بعض أقوالهم رضوان الله عليهم .

وهذه الأقوال يتفق هو وشيخ الإسلام على ثبوتها عن السلف وعدها من مذهبهم . وإليك الأقوال :

« ١ — روى أبو القاسم اللالكائى فى « أصول السنة » عن محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة رضى الله عنهما قال : اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التى جاءت بها الثقات عن رسول الله ﷺ فى صفة الرب عز وجل ، من غير تفسير ولا وصف ولا تشبيه . فمن فسر اليوم شيئاً من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبى ﷺ ، وفارق الجماعة . فإنهم لم يصفوا ولم يفسروا ، ولكن أفتوا بما فى الكتاب والسنة ثم سكتوا »[1] .

« ٢ — وذكر الخلال فى كتاب « السنة » عن حنبل ، وذكره حنبل فى كتبه مثل كتاب « السنة والمحنة » قال حنبل :

سألت أبا عبدالله عن الأحاديث التى تروى : « إن الله تبارك وتعالى ينزل إلى سماء الدنيا » و « وإن الله يرى » و « إن الله يضع قدمه » وما أشبه هذه الأحاديث ؟ .

فقال أبو عبد الله :

نؤمن بها ، ونصدق بها ، ولا كيف ولا معنى ، ولا نرد منها شيئاً . ونعلم أن ماجاء به الرسول ﷺ حق إذا كان بأسانيد

(١) مجموعة الرسائل (العقائد) ٣٢٥ : ٣٢٦ .

صحاح ، ولا نرد على الله قوله ، ولا يوصف الله تبارك وتعالى بأكثر مماوصف به نفسه بلا حد ولا غاية . ليس كمثله شىء »[1] .

نكتفى بهذا القدر ، فما ورد لا يخرج عن هذا المعنى .

أما مذهب الخلف فيعرفه الإمام الشهيد بقوله :

« فأما الخلف فقد قالوا : إننا نقطع بأن معانى ألفاظ هذه الآيات والأحاديث لا يراد بها ظواهرها ، وعلى ذلك فهى مجازات لا مانع من تأويلها .
فأخذوا يؤولون « الوجه » بالذات و « اليد » بالقدرة وما إلى ذلك ، هرباً من شبهة التشبيه » .

هذا هو تعريف الإمام الشهيد لمذهب الخلف كما فهمه ثم شرع فى ذكر بعض أقوالهم ..

وهذه الأقوال يتفق هو وشيخ الإسلام على ثبوتها عن الخلف وعدها من مذهبهم . وإليك طرفاً من أقوالهم :

« ١ — قال أبو الفرج بن الجوزى الحنبلى فى كتابه « دفع شبهة التشبيه » قال الله تعالى : ﴿ **ويبقى وجه ربك** ﴾[1] . قال المفسرون : يبقى ربك .

وكذلك قالوا فى قوله تعالى : ﴿ **يريدون وجهه** ﴾[2] أى

(١) مجموعة الرسائل (العقائد) ص ٣٢٦ .

(١) الرحمن : ٢٧ .

(٢) الأنعام : ٥٢ .

يريدونه وقال الضحاك وأبو عبيدة :

﴿ كل شىء هالك إلا وجهه ﴾[3] أى إلا هو وعقد فى أول الكتاب فصلاً ضافياً فى الرد على من قالوا إن الأخذ بظاهر هذه الآيات والأحاديث هو مذهب السلف . وخلاصة ماقاله :

إن الأخذ بالظاهر هو تجسيم وتشبيه ، لأن ظاهر اللفظ هو ما وضع له . فلا معنى لليد حقيقة إلا الجارحة ، وهكذا . وأما مذهب السلف : فليس أخذها على ظاهرها ، ولكن السكوت جملة عن البحث فيها ، وأيضاً فقد ذهب إلى أن تسميتها آيات صفات وأحاديث صفات تسمية مبتدعة لم ترد فى كتاب ولا سنة . وليست حقيقية فإنها إضافات ليس غير ، واستدل على كلامه فى ذلك بأدلة كثيرة لا مجال لذكرها هنا »[4] .

« ٢ ـــ وقال فخر الدين الرازى فى كتابه « أساس التقديس » :

واعلم أن نصوص القرآن لا يمكن اجراؤها على ظاهرها لوجوه :

الأول : أن ظاهر قوله تعالى :

﴿ **ولتصنع على عينى** ﴾[1] يقتضى أن يكون موسى عليه السلام مستقراً على تلك العين ، ملتصقاً بها ، مستعلياً عليها ، وذلك

---

(٣) القصص : ٨٨

(٤) مجموعة الرسائل (العقائد) ص ٣٢٧ : ٣٢٨ .

(١) طـه : ٣٩ .

لا يقوله عاقل .

والثانى : أن قوله تعالى :

﴿ **واصنع الفلك بأعيننا** ﴾[1] يقتضى أن يكون آلة تلك الصنعة هى تلك العين .

والثالث : أن إثبات الأعين فى الوجه الواحد قبيح . فثبت أنه لابد من المصير إلى التأويل .

وذلك هو أن تحمل هذه الألفاظ على شدة العناية والحراسة »[2] .

« ٣ ـــ قال الإمام الغزالى فى الجزء الأول من كتابه « إحياء علوم الدين » عن كلامه على نسبة العلم الظاهر إلى الباطن ، وأقسام مايتأتى فيه الظهور والبطون ، والتأويل وغير التأويل :

القسم الثالث : أن يكون الشىء بحيث لو ذكر صريحاً لفهم ، ولم يكن فيه ضرر ، ولكن يكنى عنه على سبيل الاستعارة والرمز ، ليكون وقعه فى نفس المستمع أغلب ..

ومنه قوله ﷺ :

« إن المسجد لينزوى من النخامة كما تنزوى الجلدة على النار »[3] .

---

(١) هـود : ٣٧ .

(٢) مجموعة الرسائل (العقائد) ص ٣٢٧ .

(٣)

ومعناه : أن روح المسجد وكونه معظماً . ورمى النخامة فيه تحقير له ، فيضاد معنى المسجدية ، مضادة النار لاتصال أجزاء الجلدة . وأنت ترى أن ساحة المسجد لا تنقبض من نخامة .

وكذلك قوله ﷺ :

« أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول رأسه رأس حمار »[٢] .

وذلك من حيث الصورة لم يكن قط ولا يكون . ولكن من حيث المعنى هو كائن

إذ رأس الحمار لم يكن بحقيقته وكونه وشكلة بل بخاصيته وهى البلادة والحمق ، ومن رفع رأسه قبل الإمام فقد صار رأسه رأس الحمار فى معنى البلادة والحمق ، وهو المقصود دون الشكل .

وإنما يعرف أن هذا السر على خلاف الظاهر ، إما بدليل عقلى أو دليل شرعى .

أما العقلى : فأن يكون حمله على الظاهر غير ممكن ، كقوله ﷺ :

« قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن »[١] .

إذ لو فتشنا عن قلوب المؤمنين لم نجد فيها أصابع فعلم أنها كناية

---

(٢) (خ ٦٩١ ، م ٤٢٧ .

(١) (م ٢٦٥٤ ، جه ١٩٩) ت ٢١٤٠ .

عن القدرة التى هى سر الأصابع وروحها الخفى .

وكنى بالأصابع عن القدرة لأن ذلك أعظم وقعاً فى تفهم كمال الاقتدار »[١] .

هذا هو تعريف الإمامين الجليلين لمذهب السلف والخلف وتطرح هنا جملة من الأسئلة :

هل التقيا فى التعريف للمذهبين ؟

وما هى حقيقة الخلاف بين المذهبين ؟

وهل التقى الإمامان على اختيار مذهب واحد ؟

وكيف ينظران للمخالف ؟ .

وقبل أن أجيب على هذه الأسئلة بعون الله أقول : إن هناك جملة من الإجابات مطروحة فى الساحة ، أبرزها وأشهرها مايلى .

بالنسبة لتعريف المذهبين :

قالوا : التقى الإمامان على تعريف مذهب الخلف أما مذهب السلف فقد افترق الإمامان فى تعريفه : فالإمام الشهيد عرف مذهب السلف بما يعرف به مذهب التفويض الذى هو شر المذاهب فافترق بذلك مع شيخ الإسلام .

وبالنسبة لحقيقة الخلاف بين المذهبين .

---

(١) مجموعة الرسائل (العقائد) ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

قالوا : إن موقف الإمامين متباين جداً .

فشيخ الإسلام يقول الخلاف بعيد كالمشرق والمغرب والخلاف حقيقى ..

أما الإمام الشهيد فيقول : الخلف قريب يسير وحاول تقريب المشرق والمغرب .

وبالنسبة لاختيار المذهب .

قالوا : الإمامان متباينان .

فشيخ الإسلام على مذهب السلف والإمام الشهيد على مذهب المفوضة .

أما بالنسبة للنظرة إلى المخالف :

فقالوا : شيخ الإسلام حاسم فى الحق وبيان أن مذهب المخالف كفر .

والإمام الشهيد يميع القضية ويتساهل فيما لا يجوز فيه التساهل لأنه يريد أن يجمع الناس ولا يهتم كثيراً بتجميعهم على حق أم على باطل !!

هذه ياأخى هى أبرز الإجابات المطروحة على الساحة بالنسبة لحقيقة التقاء الإمامين على المسائل السابقة .

وهناك من يقول :

إن من يدقق النظر جيداً فى موقف شيخ الإسلام ويلم بأقواله

المختلفة ، ويجمع أطرافها كلها جنباً إلى جنب ، ويحسن إنزال الأقوال على مناطها ومناسباتها الصحيحة .

ثم يقرأ أقوال الإمام الشهيد بتأنى وتمهل ودقة شديدة . إذا فعل ذلك وطرح الأحكام المسبقة ، وتجرد لله وتحلى بالصدق والإخلاص سيجد أن الإمامين قد التقيا على مذهب السلف الصالح فى النظرة السديدة ، والرأى المعتدل الرشيد ، البعيد عن الإفراط والتفريط .

هذان رأيان مطروحان على الساحة . فما هو الصواب ؟

قبل الإجابة أذكرك ياأخى بالحقائق السابقة التى قلت : إنها هامة جداً ، ولابد من استحضارها ونحن ندرس العقيدة لكى تكون ضابطاً لنا وعاصماً من زلل الإفراط أو التفريط .

وهى :

أن مسائل العقيدة منها :

الأصول والفروع ، الجليل والدقيق .

القطعى والظنى .

والاجتهاد وارد فى بعض مسائل العقيدة .

وأن الإسلام نهى عن التفكر فى ذات الله ودعا إلى التفكر فى خلق الله .

وأن السلف كانوا يكرهون الكلام إلا فيما تحته عمل .

وأن واجبنا نحو الصفات معرفة آثارها فى الكون ، ولوازمها فى

حقنا .

وأن منهج السلف ومن تبعهم كان عدم مفاتحة الناس ابتداء فى المسائل المتنازع فيها اللهم إلا عند الضرورة .

وعرفنا سبب إطالة شيخ الإسلام للكلام فى هذا الباب مع عدم استحبابه له .

ارجع إلى هذه الحقائق لتستحضرها جيداً . ثم اعلم يا أخى وفقنى الله وإياك .

أن هذه الأسئلة المطروحة يجاب عنها إذا عرفنا مايلى .

وعليك بالصبر حتى نهاية الكلام كله فى هذا الموضوع

تحرير محل النزاع :

لكى نحكم على مقدار الخلاف بين السلف والخلف لابد من تصور المسألة بدقة ، وتحرير محل النزاع فيها .

فالسلف قالوا :

نؤمن بما ثبت من هذه الصفات (اليد ، العين ، الاستواء .. لأن القرآن والسنة قد ذكرا ذلك .

ونحن نفهم من هذه الصفات معنى ذهنياً مطلقاً .

وهذا المعنى عند إضافته للخالق سبحانه يختلف تماماً عن المعنى المضاف إلى المخلوق ولا يشبهه . فهو فى حق الله كامل على مايليق بجلاله . وفى حق المخلوق ناقص .

لا يعرف حقيقة هذه المعانى وكنها إلا الله ، فنحن نفوض إليه سبحانه معرفة المراد بهذه الصفات من حيث ، معانيها اللائقة به كمالاً وكنهاً .

أما الخلف فقالوا :

نؤمن بكل ماجاء فى القرآن والسنة مما يتعلق بالصفات (اليد ، العين ، الاستواء ..) وغيرها .

نؤمن بأن هذه الصفات ليس المقصود منها معانيها فى حق المخلوقين ، فالله لا يشبهه شيء .

نقطع بأن معانى هذه الصفات (اليد ، العين ، والاستواء ..) ليست على ظاهرها المراد فى حق المخلوقات .

وليس هناك ظاهر إلا المعروف فى حق المخلوق . لذلك نحملها على ماتجيزه اللغة ولا يصطدم مع الشرع لنبتعد عن شبهة المماثلة التى تتبادر إلى الذهن لأن الذهن ألف إطلاق هذه الصفات (اليد ، العين ، والاستواء ..) على المعنى المضاف إلى المخلوق .

والصلح خير :

لقد أمر الله تعالى بالصلح بين المتخاصمين بالعدل والقسط دون إثارة ولا نفخ فى نار الفرقة .

وقد أثنى الله على الصلح وأهله القائمين به ، لأن به تماسك الجماعة وقوتها .

كل ذلك فى دائرة الحق والعدل بلا إفراط ولا تفريط .

قال تعالى :

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾(١) .

وقال سبحانه :

﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾(٢) .

فقد تضمنت هذه الآيات مبادىء إسلامية عظيمة منها :

الحث على الصلح والأمر به والثناء عليه ووصفه بأنه خير وذلك يتضمن ذم إثارة النزاع والفرقة .

ضرورة أن يكون الصلح بالعدل .

والله يحب المصلحين الملتزمين بالعدل والحق والميزان ، وعند الصلح يقال للمخطىء أخطأت . ومقدار خطئك كذا بالعدل والميزان ، بلا غلو ولا تقصير ، فلا يدخله الرضا فى باطل ، ولا

---

(١) الحجرات : ٩ .
(٢) النساء : ١٢٨ .

يخرجه الغضب عن الحق فإنه **﴿ قد جعل الله لكل شىء قدراً ﴾**(١) .

وهذا هو الذى قام به الإمام الشهيد حيث حرر محل النزاع ، وبين مقداره بما يقرب مسافة الخلف ، ويهدأ من حدة النزاع وثائرته . وقد كان رحمه الله متحرياً للعدل فى الفصل . وقد سبقه إلى هذا الفصل العادل أئمة كبار . وقد تندهش ياأخى العزيز إذا عرفت من هم هؤلاء الأئمة .

ولا أطيل عليك فسيأتيك قريباً .

الإمام الشهيد :

قال الإمام الشهيد رحمه الله محرراً للنزاع ، مبيناً مقدار الخلاف :

أولاً : اتفق الفريقان على تنزيه الله تبارك وتعالى عن المشابهة لخلقه .

ثانياً : كل منهما يقطع بأن المراد بألفاظ هذه النصوص فى حق الله تبارك وتعالى ، غير ظواهرها التى وضعت لها هذه الألفاظ فى حق المخلوقات ، وذلك مترتب على اتفاقهما على نفى التشبيه .

ثالثاً : كل من الفريقين يعلم أن الألفاظ توضع للتعبير عما يجول فى النفس ، أو يقع تحت الحواس مما يتعلق بأصحاب اللغة وواضعيها ، وأن اللغات مهما اتسعت ، لا تحيط بماليس لأهلها بحقائقه علم .

---

(١) الطلاق : ٣ .

وحقائق مايتعلق بذات الله تبارك وتعالى من هذا القبيل . فاللغة أقصر من أن تواتينا بالألفاظ التى تدل على هذه الحقائق » .

ثم نقد مذهب الخلف بقوله :

فالتحكم فى تحديد المعانى بهذه الألفاظ تغرير .

ثم قال :

وإذا تقرر هذا فقد اتفق السلف على أصل التأويل . ثم حرر النزاع بقوله :

وانحصر الخلاف بينهما فى أن الخلف زادوا تحديد المعنى المراد ، حيث ألجأتهم ضرورة التنزيه إلى ذلك حفظاً لعقائد العوام من شبهة التشبيه .

ثم بين حدود ثمرة الخلاف بقوله :

وهو خلاف لا يستحق ضجة ولا إعناتاً »(١) .

وقال فى موضع آخر بأسلوب أشد إيجازاً وإحكاماً :

« وخلاصة هذا البحث :

أن السلف والخلف قد اتفقا على أن المراد غير الظاهر المتعارف بين الخلق . وهو تأويل فى الجملة . واتفقا كذلك على أن كل تأويل يصطدم بالأصول الشرعية غير جائز .

(١) مجموعة الرسائل (العقائد) ص ٣٣٠ .

وانحصر الخلاف فى تأويل الألفاظ بما يجوز فى الشرع . هين كما ترى . وأمر لجأ إليه بعض السلف أنفسهم »(١) .

هذا هو كلام الإمام الشهيد :

فهل فى الأمور المتفق عليها بين السلف والخلف نزاع أوشك فى نفس أحد ؟

وهل فى نقده لمذهب الخلف غالى أو قصر ؟

وهل فى تحريره لمحل النزاع لم يصب ؟

وهل فى تقديره وتحديده لثمرة الخلاف فرط أو أفرط ؟

قد يندهش ويعجب جداً بعض الناس لدرجة عدم التصديق من الأمر الأخير :

وهو تقدير حجم الخلاف وثمرته ووصفه بأنه هين ويسير .. وإنى لحريص كل الحرص على إزالة هذا العجب بالحق . والعدل ــ والله الموفق والمعين ــ .

لذلك فإنى أسوق إليك من كلام العلماء الأفاضل الثقات مايزيل العجب :

قول الإمام الشاطبى :

قال الإمام الشاطبى العلامة الثقة ، صاحب الدرر النفيسة

(١) مجموعة الرسائل (العقائد) ٣٣١

والكنوز الثمينة من المؤلفات التى تنصر السنة وتقمع البدعة .

يقول رحمه الله فى مؤلفه العظيم النفيس : كتاب « الاعتصام » :

« ومن أشد مسائل الخلاف — مثلاً — مسألة : إثبات الصفات .

حيث نفاها من نفاها ، فإذا نظرنا إلى مقاصد الفريقين ، وجدنا كل واحد منهما حائماً حول حمى التنزيه ، ونفى النقائص ، وسمات الحدوث . وهو مطلوب الأدلة .

وإنما وقع اختلافهم فى الطريق ، وذلك لا يخل بالقصد فى الطرفين معاً . فالحاصل فى هذا الخلاف أشبه الواقع بينه وبين الخلاف الواقع فى الفروع »[1] .

هذا هو كلام الشاطبى :

اتفق السلف والخلف على القطعى وهو تنزيه الله عن مشابهة خلقه ، ونفى النقائص ، وسمات الحدوث عنه سبحانه وتعالى .

تحرير محل النزاع فى الطريقة :

فالسلف يثبتون بلا تشبيه ولا تعطيل ...

والخلف يؤولون فى حدود الشرع والعقل واللغة ..

ثمرة الخلاف وحدوده : هذا الخلاف يشبه الخلاف فى المسائل الفقهية العملية التى اشتهرت تسميتها بالفروع .

---

(١) الاعتصام للشاطبى جـ ٢ ص ١٨٧ .

مفاجـــأة :

والآن ياأخى العزيز نستمع سوياً إلى المفاجأة الكبرى ، فأصغ إليه بانتباه ، واقرأه على مهل :

« يقول صاحب هذا القول النفيس :

لما دعت الحاجة إلى تفريع الأعمال ، وكثرة فروعها ، وذلك مستلزم لوقوع النزاع ، اطمأنت القلوب فيها إلى النزاع .

بخلاف المسائل الخبرية :

فإن الاتفاق قد وقع فيها على الجمل ، فإذا فصلت بلا نزاع فحسن . وإن وقع التنازع فى تفصيلها فهو مفسدة من غير حاجة داعية إلى ذلك .

ولهذا ذم أهل الأهواء والخصومات ، وذم أهل الجدل فى ذلك والخصومة فيه ، لأنه شر وفساد من غير حاجة داعية إليه .

لكن هذا القدر لا يمنع تفصيلها ومعرفة دقها وجلها .

والكلام فى ذلك إذا كان بعلم ولا مفسدة فيه » .

ويبين هذا الإمام ثمرة الخلاف وحدوده ونوعه فيقول :

ولا يوجب أيضاً تكفير كل من أخطاء فيها إلا أن تقوم فيه شروط التكفير .

هذا لعمرى فى الاختلاف الذى هو تناقض حقيقى » .

واستمع إلى هذه المفاجأة الكبرى فالآن جاء دورها يقول الإمام :

« فأما سائر وجوه الاختلاف : كاختلاف التنوع ، والاختلاف الاعتبارى واللفظى ، فأمره قريب . وهو كثير أو غالب على الخلاف فى المسائل الخبرية » .

اقرأ يأخى العزيز ، ذلك النص بتأنى وتريث وتأمل فيه ، وكرره . فإنه تضمن حقائق نفيسة منها :

أن الطوائف الإسلامية (سلفاً وخلفاً) .

قد اتفقا على الجمل الثابتة القطعية واختلفوا فى التفصيلات المحتملة الظنية . وبين نوع الاختلاف فى التفصيلات الظنية فقال إنه اختلاف تنوع أو اعتبارى أو لفظى .

وبين ثمرته وحدوده فقال : أمره قريب هين وهو كثير أو غالب فى الخلاف فى المسائل الخبرية . فلا يوجب تكفيراً ولا تفسيقاً .

أما الاختلاف الذى يوجب التكفير فهو الاختلاف الذى هو تناقض حقيقى ، وهو الذى يقع فى الأمور القطعية المجمع عليها . مثل :

اعتقاد شخصى من أهل القبلة أن الله تعالى لا يقدر على إعادة جسده إذا حرق وذرى فى يوم شديد الريح مثلاً ..

فالاختلاف فى هذا الأمر تناقض حقيقى :

لأن من الأمور القطعية المجمع عليها : قدرة الله على كل شىء .

فإذا اختلف اثنان : فالمنكر لذلك كافر .

ولا يكفر هكذا بإطلاق ، إذ لابد من التحقيق من وجود شروط التكفير فيه وانتفاء موانعه عنه . فإذا توافرت هذه الأمور حكم عليه بالتكفير . وهذه قاعدة نفيسة ــ أسأل الله التوفيق لتجليتها فى بحث مستقل ــ .

هذه يأخى بعض الحقائق التى يدل عليها ذلك النص النفيس والآن أخبرك بصاحب هذا النص ، إنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله . ذكر هذا الكلام بالحرف الواحد فى ذخيرته العظيمة (مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٥٨) .

وحتى تدرك يأخى أن مسافة الخلاف بين السلف والخلف قريبة ، وليست بتلك الشقة الواسعة ، والبون الشاسع الذى أحيط بهذا الخلاف ، حتى تدرك ذلك أذكرك مرة أخرى بالحقائق التى سبق ذكرها فى بداية هذا الفصل من أن مسائل العقيدة فيها الجليل والدقيق (الأصول والفروع) والقطعى والظنى .

وأن الاجتهاد وارد فى بعض مسائلها ..

وأذكرك أن صاحب هذه القواعد هو شيخ الإسلام وقد ذكر هذه الحقائق فى نفس الموضوع الذى ذكر فيه تلك المفاجأة الكبرى من أن الخلاف فى المسائل الخبرية ، أى : مسائل العقيدة الدقيقة أغلبه خلاف اعتبارى ولفظى ..

وأحب أن أنبه هنا على أمور هامة :

١ ـ الخلاف قريب بين السلف والطائفة التى تحدثنا عنها فقط والتى تأويلها فى دائرة اللغة والشرع ولا يصطدم مع العقل .

٢ ـ لذلك لا أعنى أبداً قرب هذا الخلاف مع زنادقة المؤولة ، والملاحدة الذين كادوا للإسلام والمسلمين فكن على ذكر من هذا .

وأحب الآن تأكيد هذه الحقائق بالأقوال الجليلة لشيخ الإسلام . قال رحمه الله :

« تجد خلقاً من مقلدة الجهمية يوافقهم بلسانه ، وأما قلبه فعلى الفطرة والسنة .

وأكثرهم لا يفهمون ماالنفى الذى يقولونه بألسنتهم ، بل يجعلونه تنزيهاً مطلقاً مجملاً .

ومنهم من لا يفهم قول الجهمية ، بل يفهم من النفى معنى صحيحاً ، ويعتقد أن المثبت يثبت نقيض ذلك ، ويسمع من بعض الناس ذكر ذلك ، مثل أن يفهم من قولهم :

ليس فى جهة ، ولا له مكان ، ولا هو فى السماء . إنه ليس فى جوف السماء .

وهذا معنى صحيح ، وإيمانه بذلك حق . ولكن يظن أن الذين قالوا هذا النفى اقتصروا على ذلك ، وليس كذلك . بل مرادهم :

أنه مافوق العرش شىء أصلاً ، ولا فوق السموات إلا عدم

محض ، ليس هناك إله يعبد ، ولا رب يدعى ويسأل ، ولا خالق خلق الخلائق ، ولا عرج بالنبى إلى ربه أصلاً . هذا مقصودهم »(١) .

رحم الله شيخ الإسلام ، لقد كان نظره فاحصاً دقيقاً فميز بين المتداخلات التى اشتبهت على غيره .

لقد ميز رحمه الله بين مقاصد فريقين يرددون أقوالاً واحدة ، وينصرونها ، ويدافعون عنها .

فمقاصد الجهمية الرءوس الزنادقة تختلف كثيراً جداً عن مقاصد أكثر من يرددون أقوالهم وآراءهم .

فمقاصد الرءوس خبيثة ، وخلافهم مع السلف عظيم ، ومقاصد المقلدين طيبة ، وخلافهم مع السلف قريب وهم يحتاجون إلى توعية بمقاصد الخبثاء حتى لا يتورطوا فى تأييدهم وهم لا يشعرون .

وأضرب مثالاً آخر يوضح حجم الخلاف وحقيقته بين السلف والطائفة المذكورة من الخلف . يقول شيخ الإسلام رحمه الله عمن صرف الاستواء أو غيره من الصفات من الحقيقة إلى المجاز : « نعلم أن كثيراً ممن ينفى ذلك لا يعلم لوازم قوله ، بل كثير منهم يتوهم أن الحقيقة ليست إلا محض حقائق المخلوقين .

وهؤلاء جهال بمسمى الحقيقة والمجاز ، وقولهم افتراء على اللغة

---

(١) مجموع الفتاوى ٤ / ٥٨ : ٥٩ .

والشرع .

وإلا فقد يكون المعنى الذى يقصد به نفى الحقيقة نفى مماثلة صفات الرب سبحانه وتعالى لصفات المخلوقين .

قيل له : أحسنت فى نفى هذا المعنى الفاسد ، ولكن أخطأت فى ظنك أن هذا هو حقيقة ماوصف الله به نفسه »[1]

يتضح لنا من هذا النص النفيس اتفاق السلف والخلف على المقصود والغاية من نفى المعانى الفاسدة وتنزيه الرب سبحانه وتعالى .

ولكن الخلاف وقع فى الطريقة وانحصر فى مسمى الحقيقة والمجاز ، وهذه قضية ليس هنا محلها بل الذى نوصى به هو : سلوك الأسلوب الجميل فى رد المخالفين إلى الطريق القويم ، ليتم الصواب بالاتساق بين المقصود والطريق ، والغاية والوسيلة والله الهادى والموفق إلى سواء السبيل .

سؤال محير :

قد يحتار بعض الناس عندما يرون هذه الحقائق النفيسة تهدى إلينا على لسان شيخ الإسلام . ثم يتساءلون .

كيف هذا ، وشيخ الإسلام قد كتب المؤلفات العديدة ، والرسائل الكثيرة ، والمجلدات الضخمة فى بعض هذه المسائل ؟

هل هناك تناقض ؟

---

(١) الفتاوى / ٢٠ / ٢١٧ : ٢١٨ .

أقول : لا

هل هناك شىء خفى ؟

أقول : نعم . وإليك إيضاحه .

فالإجابة سهلة ميسورة ، وقد ذكرتها من قبل عند الكلام عن سبب إطالة شيخ الإسلام للكلام فى هذا الباب .

وخلاصته :

إنه رحمه الله لم يتكلم فى هذا الباب ابتداءً . اللهم إلا أن يدعى إلى إجابة مستفتى ملح فى سؤاله ، حائر ، محترق .

أو أن يجر إلى مناظرات ومناقشات جراً ، أو أن تثار حوله شبهات مريبة فيضطر إلى إزالتها ، فيفند الشبهات .. ويوضح مقصد كلامه . وأذكرك هنا ياأخى العزيز بمقالته السابقة حيث يقول : « أنا مابغيت على أحد ، ولا قلت لأحد : وافقنى على اعتقادى ، وإلا فعلت بك ، ولا أكرهت أحداً بقول ولا عمل . بل ماكتبت فى ذلك شيئاً قط إلا أن يكون : جواب استفتاء بعد إلحاح السائل واحتراقه وكثرة مراجعته .

ولا عادتى مخاطبة الناس فى هذا ابتداءً »[1] .

وهناك أمر مهم يزيل الحيرة وهو : أن بعض الناس يخلط بين سؤالين ولا يميز بين إجابتيهما تمييزاً دقيقاً فيقع فى الحيرة واللبس ..

---

(١) الفتاوى جـ ٣ ص ٢٤٣ .

وهذان السؤالان هما :

١ ــ مارأى شيخ الإسلام المفصل فى مسألة الصفات ؟

٢ ــ ماهى حقيقة الخلاف بين السلف والخلف وحدوده ؟ وما ثمرة هذا الخلاف ؟ وما الحكم المترتب عليه ؟

فالإجابة على السؤال الأول يتطوع شيخ الإسلام بتأليف المجلدات الضخمة من علمه الغزير الفياض رحمة الله عليه . خصوصاً وأنه كان يجيب على هذا السؤال فى مناظرات واستفتاء ملحة ...

وللإجابة على السؤال الثانى يهبنا شيخ الإسلام ذلك المقياس الدقيق ، والميزان العادل الذى يعصمنا من التردى فى هاوية التكفير بغير حق . لأنه رحمه الله يدرك مدى شدة وقع الخلاف فى مسائل العقيدة ، لأن العقيدة لها هالة عظيمة وقدسية عالية فى القلب ، لذلك فالقلب لا يطمئن إلى وقوع التنازع فيها . من أجل هذا كان المقياس المحكم .

وقد يرد سؤال آخر يحير الكثيرين وهو وارد . ألا وهو :

كيف يقول شيخ الإسلام هذا المقياس الدقيق حقاً ، ثم نراه فى العديد من مؤلفاته فى هذا الباب بالذات ، تجرى على لسانه عبارات : الكفر ، والضلال ، والزيغ ، والإلحاد ، وأفسد الأقوال ...

والإجابة على هذا هينة يسيرة لمن جمع كلام الشيخ رحمة الله عليه ، وضمه إلى بعضه ، وعرف أين المطلق ؟ وأين المقيد ؟ وعلى أى حالة يتنزل كلامه ؟ ... فعبارات الكفر ، والضلال ، والزيغ ..

يراد بها مايلى :

١ ــ أن هذه القول كفر كما يراه شيخ الإسلام فهو حكم مطلق ، والحكم المطلق لا يلحق الشخص المعين إلا إذا تحققت شروط التكفير فيه وانتفت موانعه عنه .

ويدرك هذه الحقيقة من أكثر القراءة فى كتب شيخ الإسلام رحمه الله وصبر على ذلك ، فإن فيها درراً لكنها مكنونة تحتاج إلى تنقيب وجهد ...

٢ ــ أنه لا يريد بالكفر وما شابه هذه الكلمة درجة واحدة وهى المخرج من الملة . بل أحياناً يريد الكفر أو الزيغ أو الضلال .. الأكبر ، وأحياناً يريد الأصغر . لكنه يطلق القول للترهيب والتنفير من المقالة التى يراها غير مستقيمة .

وأقول أيضاً : لا يدرك هذا إلا من عرف أسلوب الشيخ ...

٣ ــ قد تخرج منه رحمة الله عليه عبارات شديدة فى مناظرات ومناقشات حادة ... حتى يتوهم القارىء أو السامع أن الشيخ يحكم بالتكفير والتضليل ... الأكبر .

وهذا ينبغى حمله على ماسبق فى الفقرتين السابقتين . أو أن هذا الحكم على لازم المذهب الذى يراه الشيخ فاسداً والشيخ رحمة الله عليه يقرر أن لازم المذهب ليس بمذهب فى أماكن عديدة ، ويعتذر كثيراً عن المخالفين اعتذاراً لطيفاً يفيض رقة وتسامحاً وتفهماً دقيقاً للأمور .

وأسأل الله التوفيق لتجلية موقف شيخ الإسلام من مسألة التكفير ، فى بحث مستقل .

ترجيح مذهب السلف :

بعد أن عرفنا مذهب السلف ومذهب الخلف ، وعرفنا حقيقة الخلاف بينهما وحدودها وثمرتها ، ورأينا تحرير محل النزاع وما يترتب عليه من خلال أقوال شيخ الإسلام ، والإمام الشاطبى ، والإمام الشهيد رحمهم الله جميعاً .

أحب أن أوضح أن الإمام الشهيد لم يترك الأمر بدون ترجيح ، بل إنه رجح اختيار مذهب السلف ، والتقى بذلك مع شيخ الإسلام على طريق واحد .

قال الإمام الشهيد رحمه الله تحت عنوان

« ترجيح مذهب السلف : ونحن نعتقد أن رأى السلف من السكوت وتفويض علم هذه المعانى إلى الله تبارك وتعالى أسلم وأولى بالاتباع ، حسماً لمادة التأويل والتعطيل . فإن كنت ممن أسعده الله بطمأنينة الإيمان ، وأثلج صدره ببرد اليقين ، فلا تعدل به بديلاً »[1] .

شبهة التفويض :

بعض الناس — سامحهم الله — لا أدرى كيف يفكرون ؟ وبأى قلب ينظرون ؟

(١) مجموعة الرسائل / (العقائد) ص ٣٣٠ .

هؤلاء أخذوا يقرأون كلام الإمام الشهيد ، ومع وضوحه — لمن درس العقيدة بشىء ولو يسير من التخصص — إلا أنهم أبوا إلا لَىَّ عنق كلامه ، وخطف كلمة لم يحسنوا فهمها !!

وكم من عائب قولاً صحيحاً   وآفته من الفهم السقيم

ثم أخذوا يروجون أن الإمام الشهيد ليس على منهج الجيل الأول من السلف الصالح فى العقيدة ، بل هو من المفوضة .

وما حكم المفوضة ؟ إنهم شر المذاهب . ومن ثم فعقيدته فيها ... وفيها ..

قرأت هذا الكلام ثم تساءلت :

إن الإمام الشهيد رجل ذو همة قد أحيا الله به الأمة . فهل تحيا الأمم الخامدة الهامدة على أيدى رجال ذوى عقيدة مائعة أو زائغة ؟!!

كيف يتأتى هذا ؟

أين عقولنا وهذه التصورات ؟

وتذكرت قوله الإمام الشهيد كأنى أسمع شكواه من قلب متألم على حال الأمة :

« إلى متى تتقارض أمتنا التهم ، وتتبادل الظنون ، وتتنابز بالألقاب ، وتترك يقيناً يؤيده الواقع ، فى سبيل ظن توحيه الشكوك ؟

وخطرت على بالى جملة أسئلة من هذا النوع ، ثم ضربت عنها

صفحاً ، وأخذت أقرأ كلام الإمام الشهيد ، لعل قلمه زل ، فالعصمة لرسول الله ﷺ فقط .

وما سواه يصيب ويخطىء .

لعل الإمام الشهيد أخطأ ، فنعتذر عن قبول قوله ونستغفر له .

التفويض نوعان :

إن مسألة التفويض متفرعة على مسألة المحكم والمتشابه ، ولا أحب أن أطيل القول فى هذه المسألة الآن . بل اختصر القول ، وأنفذ إلى لب مسألتنا . فأقول : لقد احتككت ببعض من يتردد على ألسنتهم شبهة التفويض ، وقذف الناس بها .. فوجدت عجباً :

لقد وجدت كثيراً منهم غير متصور للمسألة ، ولا متفهم لها ، وإنما هى أقوال يرددها ، وإذا ضيقت عليه ليجلى هذه الأقوال ويحررها انقطع . وليس المقام مقام مناظرة فأحكى كل شىء ، إنما أسارع فأقول :

إن التفويض من الألفاظ المجملة التى تضم تحتها معان مختلفة ، فهو ينقسم إلى نوعين :

١ — نوع محمود يجب أن نقول به ونعتقده .

٢ — نوع مذموم يجب أن ننأى عنه

أما النوع المذموم : فهو أن يظن امرؤ أن ألفاظ هذه الآيات وأحاديثها ليس لها معان ، ولا يفهم منها شىء على أى وجه من

الوجوه . فهى عنده بمثابة (طسم — كهيعص ...) .

فالسلف كانوا يقرأون آيات الصفات وأحاديثها .. ويتدبرونها لأن الله أمر بالتدبر ، وذم من لا يتدبر .

قال تعالى :

﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾[1] .

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا ﴾[2] .

﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾[3] .

فالسلف كانوا يفهمون من الآيات معانيها ، ولكن هنا سؤال هام جداً :

أى معان هى ؟

هل هى المعانى المرادفة فى اللغة ؟ لا ، فليس هذا هو المقصود بمنهج السلف ، لأن الخلف أيضاً يفهمون هذه المعانى .

إنما المعانى التى كان يفهمها السلف من الآيات والأحاديث هى المعانى الكلية العامة المطلقة المجردة ، وهذه المعانى ليس لها وجود إلا

---

(١) ص : ٢٩ .

(٢) النساء : ٨٢ .

(٣) محمد : ٢٤ .

فى الأذهان ، وهى القدر المشترك بين كل ماتضاف إليه . وهذا القدر المشترك الذهنى ضرورى لكى نفهم الخطاب إذا أخبرنا عما لم يقع تحت حواسنا .

فإذا أضيفت هذه المعانى المجردة المطلقة اختلفت دلالتها تماماً فى حق الخالق عن دلالتها فى حق المخلوق . فهى فى حق الخالق كاملة لا تشبه أبداً دلالتها فى حق المخلوق .

فتدبر ياأخى هذه القاعدة فإنها عظيمة ، تزيل لك الإيهام ، وتعجم الإبهام ، وترفع الالتباس .

أما النوع المحمود الواجب اعتقاده فهو :

تفويض حقيقة معناها عند إضافتها للمولى سبحانه . لأننا لا ندرك كنه الذات ، لذلك فلا يمكننا أن ندرك كنه الصفات .

فإنه سبحانه :

﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾[1] .

﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾[2] .

بعد تقرير هذين النوعين وبيانهما وإيضاح الفرق بينهما ، نتساءل :

من أى النوعين كان الإمام الشهيد ؟ لننظر إلى كلامه بدقة

---

(١) الشورى : ١١ .

(٢) طـه : ١١٠ .

وتجرد ، وتريث وتمهل .

والآن أذكرك بما أوصيتك به من تدبر لنص الإمام الشهيد وقلت : إن أضواء الحكمة تتخلله وأنوار الإيمان تظلله .

وذلك عند الحديث عن « واجبنا نحو الصفات » . والآن أذكره مختصراً ، ومقتصراً على الشاهد . يقول الإمام الشهيد رحمه الله :

« والذى يجب أن يتفطن له المؤمن أن المعنى الذى يقصد باللفظ فى صفات الله تبارك وتعالى ، يختلف اختلافاً كلياً عن المعنى الذى يقصد بهذا اللفظ عينه فى صفات المخلوقين ... وضرب أمثلة بعلم الله وقدرته ...

ثم قال :

فهذه كلها ، مدلولات الألفاظ فيها تختلف عن مدلولاتها فى حق الخلق من حيث الكمال والكيفية اختلافاً كلياً ، لأنه تبارك وتعالى لا يشبه أحداً من خلقه . فتفطن لهذا المعنى فإنه دقيق .. »[1] يتجلى لكل ذى عينين من هذا النص أن المعنى الواجب تفويضه ، والذى لا ندركه هو المعنى المضاف إلى الله تبارك وتعالى من حيث الكمال والكيفية . فهل يخالف أو ينازع فى هذا التفويض أحد ؟

ويقول الإمام الشهيد أيضاً :

« إن اللغات ، مهما اتسعت ، لا تحيط بما ليس لأهلها بحقائقه علم ، وحقائق مايتعلق بذات الله تبارك وتعالى من هذا القبيل .

---

(١) مجموعة الرسائل (العقائد) ٣١٦ ، ٣١٧ .

فاللغة أقصر من أن تواتينا بالألفاظ التى تدل على هذه الحقائق »[1] .

والكلام هنا فى غاية الجلاء والوضوح حيث يبين أن المعانى التى تفوض هى حقائق مايتعلق بذات الله تبارك وتعالى .

فهل يدعى أحد معرفة حقائق مايتعلق بذات الله والإحاطة بذلك ؟

على هذا الأساس (تفويض حقيقة المعنى المتعلق بذات الله وعدم إدراك مدلولات الألفاظ من حيث الكمال والكيفية) .

على هذا الأساس يحمل كلام الإمام الشهيد إذا قال : نفوض هذه المعانى إلى الله .

فهو رحمه الله لم يقل فى أى نص : إننا لا نفهم من هذه النصوص أى معنى على أى وجه لأنها بمثابة (ق ــ حم . عسق ..) إنما نفى ــ وكلنا معه ــ أن ندرك مدلولات الألفاظ من حيث الكمال ، والكيفية ، والإحاطة ، وحقائقها المتعلقة بذات الله تبارك وتعالى .

قال الإمام الشهيد :

« ونحن نعتقد أن رأى السلف من السكوت وتفويض علم هذه المعانى إلى الله تبارك وتعالى أسلم وأولى بالاتباع ، حسماً لمادة التأويل

---

(١) مجموعة الرسائل (العقائد) ص ٣٣٠ .

والتعطيل »[1] .

أى : تفويض المعانى الحقيقية المتعلقة بذات الله . المعانى من حيث كمالها وكيفيتها .

وذلك كما قال الإمام أحمد :

« نؤمن بها ، ونصدق بها ، ولا كيف ، ولا معنى ، ولا نرد منها شيئاً »[2] .

أى معنى ينفيه الإمام ؟

إنه المعنى من حيث الكيفية والحقيقية المتعلقة بذات الله تبارك وتعالى .

بقى شىء يسير قد يعلق فى الأذهان ، وهو قول الإمام الشهيد : إن رأى السلف كان السكوت ... فهل كان السلف يسكتون لعدم علمهم كلية ؟ حاشا لله .

فهم خير الأمة ، وخير القرون ، وأعلم الأمة وأحكمها .. إنما كان سكوتهم لأمور منها :

١ ــ كراهية الكلام فيما ليس تحته عمل . وأى عمل فى هذا الباب ؟

٢ ــ كانت النفوس مستقرة فلم يوجد من يثير نزاعاً حول هذا

---

(١) العقائد : ص ٣٣٠ .

(٢) العقائد : ص ٣٢٦ .

الباب .

٣ — كانوا يثبتونها فى ضوء القاعدة العظيمة ﴿ **ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير** ﴾[1] .

فلا لبس عندهم ولا غموض لأن القرآن كله حق .

٤ — إنشغالهم بالجهاد فى سبيل الله ، ونشر الدعوة ، وعصمتهم من الفراغ القاتل ، فازدادوا بعداً عن الجدل الذى ينفرون منه .

فاجتمعت سلامة الفهم مع أسباب الإعراض عن الجدل ... فسكتوا ولم يخوضوا .

واذكرك بالرجوع إلى ماذكرته سابقاً فى بداية الفصل (النهى عن التفكر فى الذات ، النهى عن الكلام فيما ليس تحته عمل ، حكم المفاتحة فى هذا الباب) .

واجبنا نحو هذا الباب :

إن باب الصفات المتنازع فيها من الأبواب التى تورث نزاعاً وفرقة ، وتغير القلوب .

لذلك كره العلماء الخوض فيها بالتفصيل من غير ضرورة لذلك ، فإن كان التفصيل لا يسبب شقاقاً وعراكاً ، ولا يثير خصاماً ، فهو حسن .

---

(١) الشورى : ١١ .

وإن كان التفصيل يثير الفرقة والخصام ، ويقطع المحبة والوئام ، ويمزق أواصر الأخوة والجماعة فليغلق هذا التفصيل .

ويكتفى بالإجمال الثابت المجمع عليه والإجماع والاتفاق فى هذا الباب وقع على مايلى :

تنزيه الله عن مشابهة خلقه .

مدلولات ألفاظ آيات الصفات وأحاديثها فى حق الله تختلف عن مدلولاتها فى حق المخلوق .

لا يدرك حقيقة كيفية صفات الله أحد إلا الله .

والخلاف وقع فى :

هل تترك هذه الألفاظ كما هى أو يجوز تأويلها بما لا يصطدم مع الشرع والعقل واللغة ؟ .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية :

« وما تنازعت فيه الأمة وتفرقت فيه ، إن أمكنه أن يفصل النزاع بالعلم والعدل ، وإلا استمسك بالجمل الثابتة بالنص والإجماع . وأعرض عن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، فإن مواضع التفرقة والاختلاف عامتها تصدر عن اتباع الظن ، وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى » .

هذا بالنسبة لكل إنسان مع نفسه ، يريد أن يعرف الفصل فى المسائل المتنازع فيها .

أما بالنسبة للدعاة الذين ينطلقون لتعليم الناس ، وغرس معانى العقيدة الحية فى النفوس المؤمنة ، لتثمر فى النفس السكنية والاطمئنان ، والاعتزاز بالله ، والتحرر من عبودية ماسواه ، ليدكوا حصون الطغاة ويشيدوا صرح الإسلام .

هؤلاء الدعاة عليهم أن يتقوا الله ، ويعرفوا واجبهم جيداً ، فيؤدوه بدقة وحكمة .

ولنستمع إلى شيخ الإسلام وهو يوجه الدعاة .

يقول رحمه الله :

« والواجب : أمر العامة بالجمل الثابتة بالنص والإجماع ومنعهم من الخوض فى التفصيل الذى يوقع بينهم الفرقة والاختلاف .

فإن الفرقة والاختلاف من أعظم مانهى الله عنه ورسوله »(١) .

هذا ياأخى هو واجبنا فى هذا الباب نحو أنفسنا ونحو دعوتنا للآخرين .

واذكر بالعودة إلى « حكم المفاتحة » فإن فيه مزيداً من الفائدة .

ومن تمام الفائدة أن تعرف ياأخى كيف تعامل المخالف لك وتنظر إليه ؟ .

فإليك خلاصة القول فى هذا الأمر من خلال أقوال الإمامين

---

(١) الفتاوى : جـ ١٢ ص ٢٣٧ .

الجليلين : شيخ الإسلام ، والإمام الشهيد .

كيف نعامل المخالف ؟

إذا هداك الله ياأخى إلى اعتناق مذهب السلف الصالح وانشرح صدرك له ، واطمأن قلبك إليه ، فينبغى أن تعلم كيف تعامل من خالفك ؟

لأن هذا الأمـر هام جداً بالنسبة لحياتك ودعوتك ... ولأن الشيطان ينتهز هذه الفرص والمناسبات ويغرس بذور الفرقة والشقاق .

وخير من يرشدنا إلى أسلوب التعامل علماؤنا الأفاضل الثقات الذين شهدت لهم حياتهم بالعلم والعمل .

إرشاد شيخ الإسلام :

فقد بين شيخ الإسلام أن الخلاف فى هذا الباب لا ينبغى أن يثير عداوة ولا بغضاء ، ويوغر الصدور ، ويحقن النفوس .

ولا ينبغى له أن يقطع حبال الأخوة الإيمانية ، والمحبة فى الله ، والتعاون على الخير ، والتسامح ... فقد تسبب بعض علماء مصر وقضاتها فى إيذاء شيخ الإسلام ، وحرضوا عليه حتى آل الأمر إلى سجنه .

فقال وهو سجين :

« فأنا لم يكن بينى وبين أحد بمصر عداوة ولا بغضاء . ومازلت

محباً لهم ، موالياً لهم ، أمراءهم ومشايخهم وقضاتهم »[١] .

ويقول فى حق أشد القضاة خصومة له ، وتحريضاً عليه ، ونيلاً منه .

« وابن مخلوف ولو عمل مهما عمل ، والله لا أقدر على خير إلا وأعمله معه . ولا أعين عليه عدوه قط ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

هذه نيتى وعزمى مع علمى بجميع الأمور . فإنى أعلم أن الشيطان ينزغ بين المؤمنين ، ولن أكون عوناً للشيطان على إخوانى المسلمين »[١] .

الله أكبر ياأخى :

هذه هى حكمة العلماء فى دقة فهمهم ، وحسن تطبيقهم ، فعلينا أن نلتزم بهذا الطريق ، ونجاهد أنفسنا وأهواءنا لنرتفع أو نقترب من هذا السمو الذى أراده الله منا ، فعاشه علماؤنا الأفاضل .

واحذر ياأخى / أن يضحك عليك الشيطان ، ويزين لك الأمور ، ويهول لك اليسير . فاليسير يسير ، ولا ينبغى أن يهدم العظيم الجليل .

فلا تخذلن أخاً لك فى الله ، وتقبض يدك عن مساعدته ، أو تضن بجهدك عن معاونته من أجل أنك تخالفه أو يخالفك فى بعض الأمور .

---

(١) رجال الفكر والدعوة للندوى جـ ٢ ص ٨٠ .

(١) المصدر السابق : جـ ٢ ص ٨٤ .

واحذر كل الحذر أن يحرك الشيطان بوساوسه ، أو الهوى بغوائله إلى رمى أخيك بسهام التكفير ، أو نبال التجهيل ... تطبيقاً لنص قرأته من عالم أو تنفيذاً لرأى فهمته من إمام . فهاهو ذا تطبيق شيخ الإسلام ، والتطبيق لا يحتمل ماتحتمله الأقوال ، إذ قد يكون العيب فى إدراك الأفهام للكلام فكيف وجدت تطبيقه ؟ فعليك بمحاكاته .

إرشاد الإمام الشهيد :

وإليك إرشاد الإمام الشهيد رحمه الله حيث يقول عن الخلاف الواقع فى هذا الباب :

« وهو خلاف لا يستحق ضجة ولا إعناتاً » . وبعد أن أعلن عن اختياره لمذهب السلف قال : « ونعتقد إلى جانب هذا أن تأويلات الخلف لا توجب الحكم عليهم بكفر ولا فسوق ، ولا تستدعى هذا النزاع الطويل بينهم وبين غيرهم قديماً وحديثاً . وصدر الإسلام أوسع من هذا كله »[١] .

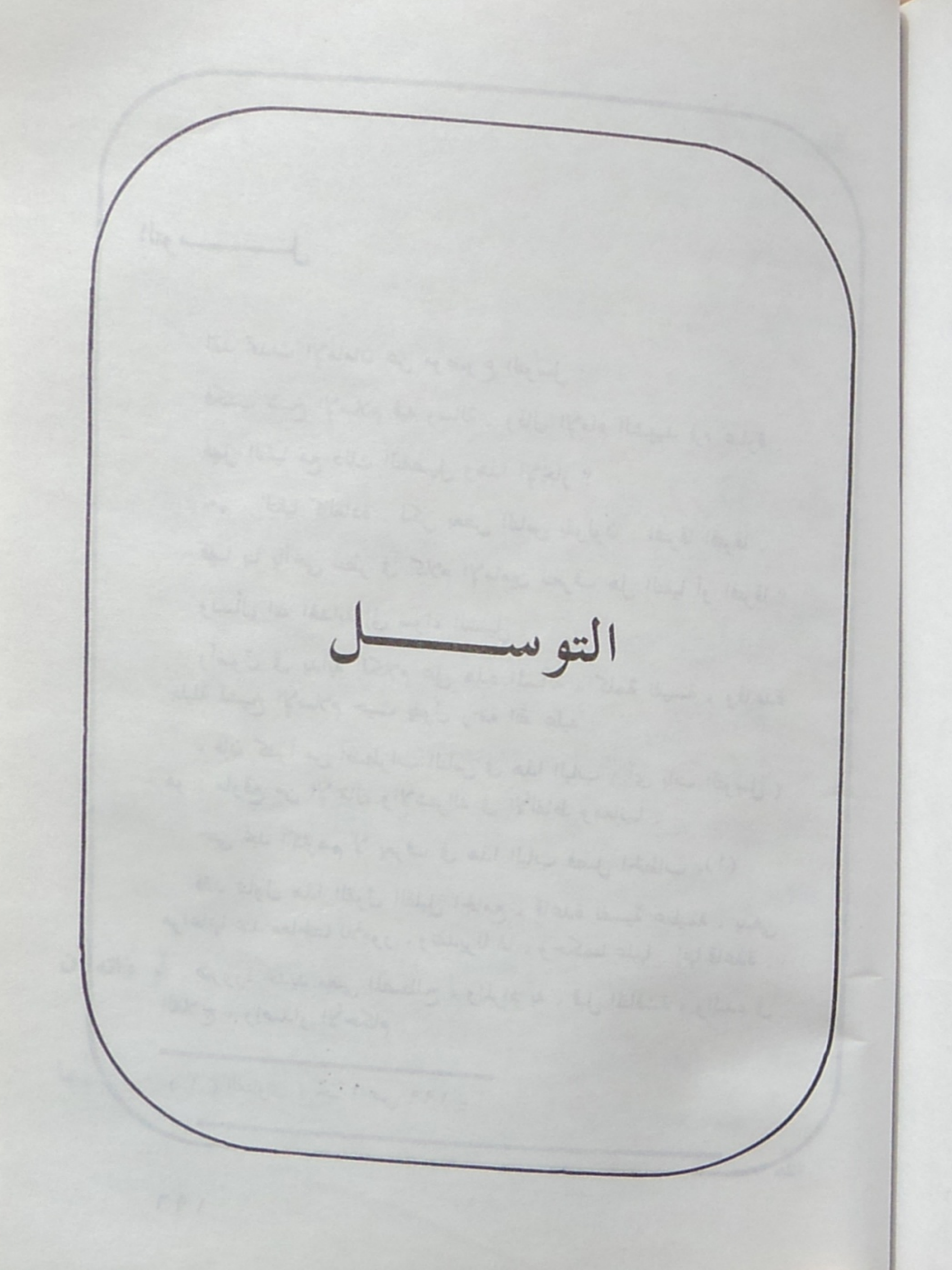
ثم ختم رسالته بهذا التوجيه العظيم :

وأهم مايجب أن تتوجه إليه همم المسلمين الآن هو توحيد الصفوف ، وجمع الكلمة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا . والله حسبنا ونعم الوكيل »[٢] .

---

(١) مجموعة الرسائل (العقائد) ص ٣٣٠ .

(٢) مجموعة الرسائل (العقائد) ص ٣٣١ .



فقارن ياأخى بين منهج شيخ الإسلام والإمام الشهيد تجد أنهما يخرجان من مشكاة واحدة ، ويلتقيان على طريق واحد ، ويسيران جنباً إلى جنب ، ويتجهان إلى غاية واحدة ، ويحرصان على هدف واحد .

تأمل ، تأمل ، يا أخى .

تدبر ، تدبر ، يا أخى .

التوســـــل

لقد تحدث الإمامان عن موضوع التوسل :

فكتب شيخ الإسلام فيه رسالة . وقال الإمام الشهيد فيه عبارة .

فهل التقيا مع ذلك التفصيل وهذا الإيجاز ؟

نعم ، التقيا كالعادة . لكن بعض الناس يقولون : افترقا افترقا .

فهيا بنا ياأخى ننظر فى كلام الإمامين لنعرف هل التقيا أو افترقا ؟

ونسأل الله الهداية إلى سواء السبيل .

وأسوق فى بداية الكلام على هذه المسألة ، كلمة نفيسة ، وقاعدة جليلة لشيخ الإسلام حيث يقول رحمة الله عليه :

« فإن كثيراً من اضطراب الناس فى هذا الباب (أى باب التوسل) هو : ماوقع من الإجمال والاشتراك فى الألفاظ ومعانيها .

حتى تجد أكثرهم لا يعرف فى هذا الباب فصل الخطاب »[1] .

فقد تناول هذا القول القليل الجامع ، قاعدة نفسية عظيمة ، ينبغى مراعاتها عند معالجتنا للأمور ، وتقديرنا لها ، وحكمنا عليها . إنها قاعدة : ضرورة تحديد معنى المصطلح ، والمراد به ، قبل المناقشة ، والبدء فى العلاج ، وإصدار الأحكام .

---

(1) الفتاوى / جـ 1 ص 199 .

تحديد المسألة :

فقبل معرفة موقف الإمامين أحدد المراد بالتوسل الذى سنتحدث عنه حتى تكون القضية واضحة .

لن أتكلم عن الوسيلة فى هذا البحث .

سأتكلم عن التوسل عند العلماء لا العوام .

سأتحدث عن نوع واحد من أنواع التوسل فقط وهو : التوسل بالنبى ﷺ .

سأتحدث عن نوع واحد من أنواع التوسل بالنبى ﷺ لا كل الأنواع .

وهذا النوع هو

التوسل به بمعنى التوسل إلى الله بذاته ، والسؤال بجاهه .

ويلحق به ﷺ الصالحون .

هذا هو النوع الذى أريد أن أبين موقف الإمامين منه ، وهل التقيا أو لا ؟

وأبين الأمر وضوحاً فأقول :

ماحكم قول : اللهم إنى أسألك بجاه نبيك ﷺ ... أو ذاته أن تفعل لى كذا ؟ .

بعد إيضاح المسألة نتعرف الآن على موقف الإمامين رحمهما الله .

يؤدى إلى كفر أحد الفريقين ، بل الذى يحكم على غيره بالكفر يحتاج إلى تقريع وعقوبة لجهله ، وقلة علمه .

فيقول رحمه الله :

« وللناس فى معنى حديث الأعمى قولان :

الأول : أن التوسل المذكور هو توسل بالدعاء فى حياته وحضرته فقط .

الثانى : أن التوسل يكون فى حياته ، وبعد موته ، وفى مغيبه وحضرته .

ولم يقل أحد : إن من قال بالقول الأول فقد كفر . ولا وجه لتكفيره .

فإن هذه مسألة خفية ليست أدلتها جلية ظاهرة . والكفر إنما يكون بإنكار ماعلم من الدين بالضرورة . أو بإنكار الأحكام المتواترة والمجمع عليها ونحو ذلك .

وأما من قال : إن من نفى التوسل الذى سماه استغاثة بغيره : كفر . وتكفير من قال بقول الشيخ عز الدين وأمثاله فأظهر من أن يحتاج إلى جواب .

١ ـــ يقول الشيخ عز الدين بن عبد السلام بجواز التوسل بالنبى ﷺ بل المكفر بمثل هذه الأمور ، يستحق من غليظ العقوبة والتعزير

مايستحقه أمثاله من المفترين على الدين[1] .

لا سيما مع قول النبى ﷺ : « من قال لأخيه : ياكافر ، فقد باء بها أحدهما »[2] .

هذا هو رأى شيخ الإسلام رحمه الله فى مسألة التوسل بالنبى أو الصالحين وأنه لا يترتب على الاختلاف فيها فساد اعتقاد .

وهناك أمر هام أحب أن ألفت إليه نظر الأخ القارىء ، قد يؤدى غيابه إلى اشتباه عليه :

وهذا الأمر هو ضرورة التمييز بين سؤالين :

١ ـــ هل التوسل المذكور سابقاً مسألة اجتهادية يسوغ فيها النزاع ، ولا عقوبة على المخالف أو لا ؟

٢ ـــ مارأى شيخ الإسلام واختياره فى هذا الخلاف ؟

فيجيب شيخ الإسلام على السؤال الأول بقوله :

هى مسألة نزاعية اجتهادية فرعية .

ويجيب على السؤال الثانى بقوله :

رأيى أنه لا يجوز التوسل بهذه الصورة مع اعترافى بأنها اجتهادية .

ويؤلف الرسالة من أجل تدعيم رأيه الذى ترجح لديه ، ونقد

---

(١) الفتاوى جـ ١ ص ١٠٦ .

(٢) البخارى (٦١٠٣) مسلم (٦٠) .

آراء المخالفين .

وبالتمييز بين السؤالين يرتفع الاشتباه ، ويضع الإنسان يده على منهج شيخ الإسلام رحمه الله .

وإذا سألنا شيخ الإسلام وقلنا له افتراضاً : ماذا تقول فيمن يخالف رأيك ويقول بالجواز ؟

فإجابته هى :

له رأيه ، ولى رأيى ولا أحجر على فكره ، ولا أعاقبه فضلاً عن أن أحكم عليه بالشرك أو الكفر ..

هذه خلاصة رأى شيخ الإسلام فى مسألة التوسل بالأنبياء والصالحين بمعنى :

التوجه إلى الله فى حق الدعاء بذواتهم أو جاههم ، والآن ننتقل لمعرفة رأى الإمام الشهيد رحمه الله .

رأى الإمام الشهيد :

بين الإمام الشهيد نوع مسألة التوسل بالصالحين بجاههم أو ذواتهم عند التوجه إلى الله وحده بالدعاء ، فأخبر أن هذه المسألة بهذه الصورة ، الخلاف فيها خلاف فرعى كالاختلاف فى المسائل الاجتهادية التى ليس عليها دليل قطعى يفصل فى المسألة بالجواز أو المنع .

لذلك فهذه المسألة ليست من المسائل التى يترتب على الخلاف

فيها فساد اعتقاد .

لأنه لم يرد فى حقها نص ثابت قاطع ولا مجمع عليها بحيث يترتب على مخالفتها فساد اعتقاد

لذلك فهذه المسألة ليست من مسائل العقيدة الكبيرة ، ولا الأصول الجليلة .

فقال رحمه الله فى بنود الفهم أول أركان البيعة العشرة :

« ١٥ ــ والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه ، خلاف فرعى فى كيفية الدعاء ، وليس من مسائل العقيدة »[١] .

فهو بهذا يلتقى مع شيخ الإسلام رحمه الله فى أن الخلاف فى هذه المسألة بالصورة التى حددناها خلاف اجتهادى : لا يستحق عقاباً بالإجماع ، بل المعاقب بذلك معتد جاهل ظالم .

وهو ليس من مسائل العقيدة الكبيرة التى تستلزم المخالفة فيها : الكفر .

بل الذى يكفر بمثل هذه الأمور يستحق العقوبة والتعزير ، وهو من المفترين على الدين .

والدعاء معنى كبير ، وعبادة واسعة ، فيها الأصول المتفق عليها اليقينية القاطعة التى من خالفها يفسد اعتقاده . وفيها الفروع القابلة للاجتهاد وتبادل الآراء والترجيح بينها .

(١) مجموعة الرسائل (العقائد) ص ٢٧٠ .

فالأصل المجمع عليه هو :

التوجه إلى الله وحده بالسؤال والطلب ...

والمتوسل بجاه أحد .. إنما يتجه إلى الله وحده يسأله ويطلب منه سبحانه .

فانحصر الخلاف فى طريقة الأداء وهو فرع : من العلماء من أجازه بأدلة ومنهم من منعه بأدلة .

فإذا صح القصد وهو أن يكون إلى الله وحده ، فما عداه من هيئة أو ألفاظ ... فهو محل اجتهاد .

وقد ضربت صفحاً عن ذكر آراء العلماء المجيزين والمانعين ، وأدلة الفريقين ، ومناقشتها ... لأننى لا أبحث هنا فى الراجح من المرجوح . وإنما أبحث عن كون هذه المسألة من الأمور التى يسوغ فيها الاجتهاد فيكون الخلاف فيها فرعياً لا يترتب عليه فساد اعتقاد أم لا ؟

وعن رأى شيخ الإسلام والإمام الشهيد فى هذه الحيثية وهل اتفقا أم لا ؟

وقد ظهر لك ياأخى أنها مسألة فرعية لا يترتب عليها فساد اعتقاد وأن الإمامين قد التقيا على ذلك .

شبهات ومناقشتها :

قد يقول قائل :

إن وصف الإمام الشهيد للخلاف بأنه فرعى .. لم يحسم المسألة

بل كان سبباً فى انحراف وتساهل كثير من الناس .

أقول : سبحانك يارب ، ما أحلمك .

ياأخى :

ماذا تريد من الحسم ؟ إن هذه مسألة لا تتحسم بل هى مما يجتهد فيه لعدم وجود أدلة جلية توجب القطع بالمنع أو الجواز كما قال شيخ الإسلام .

فالإمام الشهيد جزاه الله خيراً ، بتحريره لحقيقة المسألة وأنها خلاف فرعى ، قد هدأ بها صراعات وتناحر ، ومعارك وتنابز ، وجمع بفضل الله قلوباً تنافرت ... لأن هذا هو الرأى الحق فى المسألة الذى يمكن للقلوب أن تجتمع عليه ، وتحت ظله ..

واعلم ياأخى أن مشكلتك ومشكلة الآلاف غيرك أنكم لا تفهمون من معنى كلمة عقيدة إلا أن كل مسائلها مسائل أصول يترتب على خلافكم فيها الكفر والشرك والضلال ...

ولا يجوز فى أى مسألة منها الاجتهاد . وأخبرك أن هذا الفهم فهم خاطىء شديد الخطأ وليس هو منهج السلف الصالح رضوان الله عليهم . إنما هو منهج علماء الكلام المذموم ، وأهل الأهواء كما بين شيخ الإسلام .

إنما منهج السلف هو : تقسيم مسائل العقيدة إلى أصول وفروع أو قطعى وظنى على هذا أجمعوا على جواز الاجتهاد فى الفرعى منها ، ولكل مجتهد أجره على حسب حاله . فعليك بالرجوع إلى ماذكرته

سابقاً فى ذلك المعنى .

ثم اعلم يأخى :

أن الإمام الشهيد عندما وصف الخلاف فى المسألة بأنه خلاف فرعى كان يخاطب علماء يفهمون الكلام ويميزون بين المسائل المشتبهة المتداخلة .

أما أنت وأمثالك فلم تميزوا بين المشتبه المتداخل فحملت حكم الإمام الشهيد على ماتراه من فعل العوام الجهال من دعاء الموتى وتوجه إليهم وسؤالهم وطلب قضاء الحاجات منهم ، والاستغاثة بهم ...

فأدى بك ذلك إلى قولك إن الإمام الشهيد تسبب فى تساهل الكثيرين وانحرافهم !!

لأنك غررت بتسميتهم لهذه الحالة والصورة « توسلاً » وأخبرك يأخى أنك قد سقطت فى مصيدة الشبه ونسيت أن الإمام الشهيد قد أطلق هذا الحكم على صورة محددة هى :

التوجه إلى الله وحده بالدعاء والطلب وقضاء الحاجة سائلاً إياه عز وجل وحده بجاه فلان أو ذاته ...

لا متوجهاً إلى فلان الميت ... يطلب منه ويسأله .. والعوام وأشباههم يسمون الصورة الثانية توسلاً . وأنت أخذت حكم الإمام الشهيد على الصورة الأولى فجعلته فى الصورة الثانية .

فوقعت بذلك فى الخطأ وحكمت على الرجل بما هو براء منه .

واعلم أن حكم الإمام الشهيد على الصورة الثانية (التوجه إلى الأموات ، وطلب قضاء الحاجات منهم ..) هو أن هذه كبائر تجب محاربتها ولا يتأول لذلك سداً للذريعة . وقد ذكرت ذلك سابقاً تحت عنوان (لا استعانة بالمقبورين) فارجع إليه .

فعليك يأخى أن تحسن التمييز بين الأمور ولا تخلط بينها حتى لا تسقط فى مصايد الشبه ، وحتى لا تطلق أحكاماً غير صحيحة على الناس .

وإذا اشتبه عليك أمر ، فاسأل واستفسر « فإنما شفاء العى السؤال » كما علمنا رسول الله ﷺ .

ولا تبادر إلى إنكاره ، والحكم عليه بالفساد والعيب حتى لا تكون فيمن قيل فيهم :

وكم من عائب قولاً صحيحاً
وآفته من الفهم السقيم

فإن من أعظم أسباب الانحراف :

ألا يحسن المرء إنزال الأقوال التى يقرأها أو يسمعها على مناسباتها ومرادها الصحيح .

وهذا هو مايسميه الأصوليون بـ (تحقيق المناط) والخطأ فى « تحقيق المناط » يكون بسبب : الجهل ، أو الهوى ، أو العجلة ..

نسأل الله لنا ولكم العافية ورحم الله الإمامين الجليلين .

أقوال ومواقف فى الدعوة

أقوال ومواقف فى الدعوة

لقد فهم الإمامان الإسلام أحسن الفهم ، فأنارت العقول ، وأضاءت القلوب ، وأشرقت الجوارح .

وخلفا لنا أقوالاً حكيمة من نور الإسلام ومواقف جليلة يمليها الإيمان وهذه الأقوال والمواقف منارات هدى ، ومشاعل نور تهدى السائرين على طريق الدعوة . وتصحح مسير الحيارى التائهين .

وأحب أن أنقل لك نماذج منها عسى أن ينفع الله بها .

شيخ الإسلام :

من فقه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

لقد أوجب الله على عبادة أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، حفاظاً على الدين من الاضمحلال ، ومنعاً للفساد من الانتشار فقال سبحانه وتعالى :

﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾[1] والآيات والأحاديث فى الباب كثيرة جداً .

وهذه الفريضة الربانية لها فقه دقيق من شروط وآداب ... ينبغى معرفتها ، والتحلى بها حتى يكون العمل على علم وفقه ، فيؤتى أطيب الثمار ، ويتجنب السقوط والعثار . ولشيخ الإسلام عليه رحمة الله أقوال حكيمة فى هذا الجانب ، مضبوطة بميزان الشرع العادل ، المجافى للإفراط والتفريط .

يقول رحمه الله :

« معلوم أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإتمامه بالجهاد هو من أعظم المعروف الذى أمرنا به .

ولهذه قيل :

ليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر .

---

(١) آل عمران : ١٠٤ .

وإذا كان هو من أعظم الواجبات والمستحبات فالواجبات والمستحبات لابد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة .

إذ بهذا بعثت الرسل ، وأنزلت الكتب ، والله لا يحب الفساد ..

مراتبـــه :

وذلك يكون تارة بالقلب وتارة باللسان وتارة باليد .

فأما القلب فيجب فى كل حال ، إذ لا ضرر فى فعله ، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن ، كما قال النبى ﷺ وذلك أدنى — أو — أضعف الإيمان » ...

أخطاء على الطريق :

وهنا يغلط فريقان من الناس :

فريق يترك مايجب من الأمر والنهى تأويلاً لهذه الآية ، كما قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى خطبته :

إنكم تقرأون هذه الآية :

﴿ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾[1] .

وإنكم تضعونها فى غير موضعها . وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أو شك أن يعمهم الله

(١) المائدة : ١٠٥ .

بعقاب منه »[1] .

والفريق الثانى :

من يريد أن يأمر وينهى ، إما بلسانه وإما بيده مطلقاً ، من غير فقه ، وحلم ، وصبر ، ونظر فيما يصلح من ذلك ومالا يصلح ، وما يقدر عليه ومالا يقدر .

فيأتى بالأمر والنهى معتقداً أنه مطيع فى ذلك لله ورسوله ، وهو معتد فى حدوده »[2] .

آداب ضرورية :

العلم

« فلابد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما .

ولابد من العلم بحال المأمور والمنهى .

ومن الصلاح أن يأتى بالأمر والنهى بالصراط المستقيم ، وهو أقرب الطرق إلى حصول المقصود .

الرفـــق

ولابد فى ذلك من الرفق . كما قال النبى ﷺ :

« ماكان الرفق فى شىء إلا زانه ولا كان العنف فى شىء إلا

(١) (حه ٤٠٠٥ ، ت ٢١٦٨ ، ٢١٦٩) .

(٢) الفتاوى حـ ٢٨ ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

شانه »[1] .

وقال :

« إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله ، ويعطى عليه مالا يعطى على العنف »[2] .

الصبـــر

ولابد أيضاً أن يكون حليماً صبوراً على الأذى . فإنه لابد أن يحصل له أذى .

فإن لم يحلم ويصبر كان مايفسد أكثر مما يصلح .

كما قال لقمان لابنه : ﴿ **وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك إن ذلك من عزم الأمور** ﴾[3] .

ولهذا أمر الله الرسل ــ وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ــ بالصبر ...

خلاصة الآداب

فلابد من هذه الثلاثة :

العلم ، والرفق ، والصبر .

---

(١) مسلم (٢٥٩٤) .
(٢) البخارى (٦٠٢٤ ، ٦٣٥٦) مسلم (٢١٦٥ ، ٢٥٩٣) .
(٣) لقمان : ١٧

- العلم قبل الأمر والنهى .
- والرفق معه .
- والصبر بعده .

وإن كان كل من الثلاثة مستصحباً فى هذه الأحوال .

وهذا كما جاء فى الأثر عن بعض السلف ، ورووه مرفوعاً ، ذكره القاضى أبو يعلى فى المعتمد :

« لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان :

فقيهاً فيما يأمر به ، فقيهاً فيما ينهى عنه

رفيقاً فيما يأمر به رفيقاً فيما ينهى عنه

حليماً فيما يأمر به حليماً فيما ينهى عنه »[1] .

كيف نعامل الحكام الطغاة ؟ :

« وقد تكلمت على قتال الأئمة فى غير هذا الموضع . وجماع ذلك داخل فى القاعدة العامة » :

فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد ، والحسنات والسيئات أو تزاحمت ، فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد وتعارضت المصالح والمفاسد .

فإن الأمر والنهى وإن كان متضمناً لتحصيل مصلحة ، ودفع

---

(١) الفتاوى جـ ٢٨ ص ١٣٩ ، ١٣٧ .

مفسدة ، فينظر فى المعارض له :

فإن كان الذى يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر ، لم يكن مأموراً به .

بل يكون محرجاً إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته .

ميزان المصحلة والمفسدة :

لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هوبميزان الشريعة »[١] .

تلك ياأخى درة من درر شيخ الإسلام فى فقه الدعوة ، ومعرفة شروطها والتحلى بآدابها . وإيضاح للطريق كاملاً إيضاحاً بيناً . والتنبيه على منعطفاته الخطيرة ، والإرشاد إلى الطريق الصحيح عندما تتشابه الطرق . كل ذلك فى ظلال المنهج الربانى ، وبالميزان الشرعى .

مواقف سنية :

لم يكن شيخ الإسلام رجل قول فحسب ، إنما كان رجل قول وعمل ، وعمله أسبق .

لم يكن رجل نظريات وكفى . إنما كان إماماً فى التطبيقات أيضاً .

لقد كان رحمة الله عليه رجل قول رشيد ، وعمل سديد . إذا تكلم فبالحكمة ، وإذا عمل فبالدقة .

---

(١) الفتاوى / جـ ٢٨ ص ١٢٩ .

ولقد حفظ لنا التاريخ العديد من مواقفه السنية العملية ، وضرورى جداً لمن أراد أن يفهم كلام شيخ الإسلام بدقة أن يطلع على مواقفه العملية التى تجلى قواعده النظرية ، ليتمكن من تطبيق كلامه على الوجه الحسن السديد ، ولا يترب عليه لوازم فاسدة هو منها براء .

والآن أنقل لك عدة مواقف .

أولاً : الحكمة فى إنكار المنكر .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : « إنكار المنكر أربع درجات :

الأولى : أن يزول ويخلفه ضده .

الثانية : أن يقل وإن لم يزل بجملته .

الثالثة : أن يخلفه ماهو مثله .

الرابعة : أن يخلفه ماهو شر منه .

فالدرجتان الأوليان : مشروعتان

والثالثة : موضع اجتهاد

والرابعة : محرمة ...

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ــ قدس الله روحه ونور ضريحه ــ يقول : مررت أنا وبعض أصحابى فى زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر ، فأنكر عليهم من كان معى . فأنكرت عليه ، وقلت له :

إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة . وهؤلاء تصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال ، فدعهم »[1] .

الأمر لا يحتاج إلى تعليق إلا التذكير بالانتباه والتوفيق وحسن النظر والتطبيق .

ثانياً : معاملة المخالفين :

لقد دافع شيخ الإسلام عن مذهب السلف دفاعاً شديداً ، ونقد مذهب الخلف نقداً مراً ، وألف الرسائل الكثيرة .. فى تفنيده .. ولنصرة مذهب السلف وتأييده .

ولقد انتشر رأيه رحمه الله وازدهر .

لكن غابت عن الكثيرين نظرة شيخ الإسلام إلى المخالفين كأشخاص مسلمين لا آراء . وغاب منهجه فى معاملتهم لا نقد آرائهم ...

والآن أسوق لك موقفاً يسيراً يجلى شيئاً قليلاً مما غاب .

« قال الحافظ ابن كثير رحمه الله :

أخبرنى القاضى جمال الدين بن القلانسى ، أن السلطان محمد بن الملك المنصور قلاوون ، استفتى الشيخ ابن تيمية فى قتل بعض القضاة بسبب ماكانوا تكلموا فيه ، وأخرج له فتاوى بعضهم بعزله

(١) إعلام الموقعين جـ ٣ ص ٤ ، ٥ .

من الملك ومبايعة الجاشنكير ، وأنهم قاموا عليك وآذوك أنت أيضاً ، وأخذ يحثه بذلك على أن يفتيه فى قتل بعضهم ، وإنما كان حنقه عليهم بسبب ما كانوا سعوا فيه من عزله ، ومبايعة الجاشنكير .

ففهم الشيخ مراد السلطان .

فأخذ فى تعظيم القضاة والعلماء ، وينكر أن ينال أحداً منهم بسوء . وقال له :

إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم .

فقال له :

إنهم قد آذوك ، أرادوا قتلك .

فقال الشيخ :

من آذانى فهو فى حل .

ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه .

وأنا لا أنتصر لنفسى .

وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح .

قال : وكان قاضى المالكية ابن مخلوف يقول :

« مارأينا مثل ابن تيمية : حرضنا عليه فلم نقدر عليه ، وقدر علينا فصفح عنا ، وحاجج عنا »[1] .

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٤ ص ٥٤ .

هكذا أخلاق العلماء تتجسد فى شيخ الإسلام ولكى تدرك مزيداً من فوائد هذا الموقف يأخى يجب أن تعلم :

أن هؤلاء القضاة كان بينهم وبين شيخ الإسلام خلافاً شديداً فى بعض مسائل العقيدة .

فهم مقتنعون بمذهب الخلف ، وشيخ الإسلام مقتنع بمذهب السلف .

وقد ألف شيخ الإسلام رسالة فى تأييد مذهب السلف ونقد الخلف بحجج قوية .

وقد دارت بين الفريقين مناظرات شديدة وحادة وحارة .. وثار عليه هؤلاء بسبب مخالفته لهم ولم يتسع صدرهم لقبول رأيه ، والتعايش معه . فآذوه وسجنوه .

لكن شيخ الإسلام رحمه الله كان أحسن فهماً لروح الدين وأوسع صدراً لقبول رأى المخالف .

وأعظم إدراكاً لمكانة الأخوة فى الدين .

وأشد محافظة عليها ، فالأخوة قمة سامقة لا تصل إليها الخلافات فتمسها فضلاً عن أن تنال منها ، بخدش فضلاً عن الهدم .

فكان مثالاً رفيعاً فى الخلق الإسلامى المنبثق من العقيدة الواعية الحية المثمرة ..

إن هذا الموقف يعلم الدعاة السائرين على الطريق كيف يعاملون

المخالفين لهم فى الآراء سواء كانت فى الفقه أو الاعتقاد الفرعية الدقيقة طبعاً ؟

ثالثاً : الجهـــاد :

لقد كان شيخ الإسلام رجل القلم واللسان ، والسيف والسنان .

فقد كان رحمه الله يعلم فى المساجد ، حتى إذا داس العدو ديار المسلمين خرج يجاهد .

فأخذ يجمع الصفوف ، ويعمل على تأليف القلوب ، وألقى عليهم دروساً نارية تلهب فيهم الحماس وتدفعهم إلى الجهاد وطلب الشهادة .

وكان رحمه الله إمامهم فى الجهاد ، ومثلهم فى الشجاعة ، وقدوتهم فى الثبات . ولقد أعز الله به المسلمين فى قتال التتار . وحمى به الدين من شر هؤلاء الفجار .

فكان بذلك مثلاً حياً للعقيدة الصادقة ، الحية المتحركة ، القوية المثمرة ، العملية البناءة .

يقول الحافظ عمر بن على البزار فى وصف شيخ الإسلام :

« كان رضى الله عنه ، من أشجع الناس وأقواهم قلباً ، مارأيت أحداً أثبت جأشاً منه ، ولا أعظم عناء فى جهاد العدو منه ، كان يجاهد فى سبيل الله بقلبه ولسانه ويده ، ولا يخاف فى الله لومة لائم .

وأخبر غير واحد : أن الشيخ رضى الله عنه ، كان إذا حضر مع عسكر المسلمين فى جهاد يكون بينهم واقيتهم وقطب ثباتهم ، إن رأى من بعضهم هلعاً ، أورقة ، أو جبانة ، شجعه وثبته وبشره ، ووعده بالنصر والظفر والغنيمة ، وبين له فضل الجهاد والمجاهدين ، وإنزال الله عليهم السكينة .

وكان إذا ركب الخيل تحنك ويجول فى العدو كأعظم الشجعان ، ويقوم كأثبت الفرسان ، ويكبر تكبيراً أنكى فى العدو من كثير من الفتك بهم ، ويخوض فيهم خوض رجل لا يخاف الموت .

وحدثوا أنهم رأوا منه فى فتح عكة أموراً من الشجاعة يعجز الواصف عن وصفها .

قالوا : ولقد كان السبب فى تملك المسلمين إياها بفعله ومشورته وحسن نظره .

وحدثنى من أثق به عن الشيخ وجيه الدين بن المنجا قدس الله روحه قال : كنت حاضراً مع الشيخ فجعل (ابن تيمية) يحدث السلطان بقول الله ورسوله فى العدل وغيره ، ويرفع صوته على السلطان فى أثناء حديثه ...

وقال الشيخ للترجمان : قل لغازان :

أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون ... فغزوتنا ، وأبوك وجدك كانا كافرين ، وما عملا الذى عملت ،

عاهدا فوَفَّيَا ، وأنت عاهدت فغدرت ، وقلت فما وفيت وجرت . وكان ذلك سبباً لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم ، وردهم على أهلهم وحفظ حريمهم »[١] .

وقال شيخ الإسلام فى الرسالة القبرصية يخاطب ملك قبرص :

« وقد عرف النصارى كلهم أنى لما خاطبت التتار فى إطلاق الأسرى ، وأطلقهم غازان ، وقلطو شاه ، وخاطبت مولاى فيهم فسمع بإطلاق المسلمين .

قال لى : لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس ، فهؤلاء لا يطلقون .

فقلت له : بل جميع من معك من اليهود والنصارى ، الذين هم أهل ذمتنا ، فإنا نفتكهم ، ولا ندع أسيراً ، لا من أهل الملة ، ولا من أهل الذمة ، وأطلقنا من النصارى من شاء الله . فهذا عملنا وإحساننا ، وجزاؤنا على الله .. »[٢] .

هذا هو موقف شيخ الإسلام العالم المجاهد الشجاع ... يعلمنا كيف يكون الدعاة صادعين بالحق فى وجه الطغاة ، الجائرين العتاة ، ولا يخافون أحداً إلا الله . وكيف يكون حبهم ، وقوة أخوتهم مع بنى ملتهم ، ومعاونتهم بما يستطيعون ، والدفاع عنهم إذا ظلموا أو اعتدى عليهم عدو وحشى ملحد ... ، والسعى فى تخليصهم من الأسر ، لأنه واجب يمليه الإسلام .

---

(١) الأعلام العلية فى مناقب ابن تيمية / ص ٦٧ : ٧٢ .

(٢) الفتاوى جـ ٢٨ ص ٦١٧ ، ٦١٨ .

ويعلمهم كيف يفون بما يوجبه الإسلام مع أهل الذمة .

هكذا العلماء العاملون الصادقون المخلصون . رحم الله شيخ الإسلام . وجزاه الله خير الجزاء .

والآن مع أقوال ومواقف للإمام الشهيد .

الإمـــام الشهيـــد

ميادين مختلفة :

يبين الإمام الشهيد للدعاة حقيقة هامة فى قول حكيم موجز ، فيوصيهم بعدم العجلة حتى لا تذهب الجهود سدى ، ولئلا يصدموا عند اللقاء فيصابوا بما لا تحمد عقباه .

فينبغى إعداد العدة للموقف الفاصل الإعداد الشاق الدائم ، والصبر على الإعداد . لابد من المرور فى مراحل تتفق وسنن الكون .

يقول رحمه الله :

« إن رجل القول غير رجل العمل ورجل العمل غير رجل الجهاد ورجل الجهاد فقط غير رجل الجهاد المنتج الحكيم الذى يؤدى إلى أعظم الربح بأقل التضحيات »[1] .

وفى قصة طالوت بيان لمن يريد

عقبات وابتلاءات :

إن من اهتدى إلى طريق الدعوة يشعر بالعزة والفخار للسير فى

(١) مجموعة الرسائل (المؤتمر الخامس) ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

ركب النبيين .

ويشعر بحلاوة البذل والعطاء وهذه بشائر فى الدنيا .. وفى الآخرة نعيم لا ينفد .

وهذا الأجر العظيم ، والجزاء الجليل فى مقابل شيء يسير ، إنه الصبر على عقبات الطريق ، وتحمل الابتلاءات . وتلك سنة الله التى لا تتبدل ولا تتحول . فينبغى للنفوس أن تتهيأ لهذا وتستعد حتى يأتيها النصر والتمكين فى الدنيا . وفى الآخرة النعيم المقيم .

فبين الإمام الشهيد للدعاة السائرين حقائق الطريق .

فقال رحمه الله :

« أحب أن أصارحكم أن دعوتكم لا زالت مجهولة عند كثير من الناس ، ويوم يعرفونها ويدركون مراميها وأهدافها ستلقى منهم خصومة شديدة ، قاسية . وستجدون أمامكم كثيراً من المشقات وسيعترضكم كثير من العقبات وفى هذا الوقت وحده تكونون قد بدأتم تسلكون سبيل أصحاب الدعوات . أما الآن فلازلتم مجهولين . ولازلتم تمهدون للدعوة ، وتستعدون لما تتطلبه من كفاح وجهاد .

سيقف جهل الشعب بحقيقة الإسلام عقبة فى طريقكم .

وستجدون من أهل التدين ومن العلماء الرسميين من يستغرب فهمكم للإسلام وينكر عليكم جهادكم فى سبيله .

وسيحقد عليكم الرؤساء والزعماء وذوو الجاه والسلطان .

وستقف فى وجهكم كل الحكومات على السواء .

وستحاول كل حكومة أن تحد من نشاطكم وأن تضع العراقيل فى طريقكم .

وسيتذرع الغاصبون بكل طريق لمناهضتكم وإطفاء نور دعوتكم .

وسيستعينون فى ذلك بالحكومات الضعيفة والأخلاق الضعيفة والأيدى الممتدة إليهم بالسؤال ، وإليكم بالإساءة والعدوان .

وسيثير الجميع حول دعوتكم غبار الشبهات ، وظلم الاتهامات . وسيحاولون أن يلصقوا بها كل نقيصة ، وأن يظهروها للناس فى أبشع صورة ، معتمدين على قوتهم وسلطانهم ، ومعتدين بأموالهم ونفوذهم :

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾[1] .

وستدخلون بذلك ولا شك فى دور التجربة والامتحان :

فتسجنون وتعتقلون ، وتنقلون وتشردون ، وتصادر مصالحكم ، وتعطل أعمالكم ، وتفتش بيوتكم . وقد يطول بكم مدى هذا الامتحان :

﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا

---

(١) الصف : ٨ .

يفتنون ﴾[1] .

ولكن الله وعدكم من بعد ذلك كله نصرة المجاهدين ، ومثوبة العاملين المحسنين :

﴿ ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴾ ... إلى قوله تعالى : **﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾**[2] .

فهل أنتم مصرون على أن تكونوا أنصار الله ؟[3] .

هذه عقبات الطريق ، فعلى الدعاة أن يتزودوا بعوامل النجاح لاجتيازها حتى يصلوا إلى النصر والمثوبة .

للقوة درجات وأوقات :

الإسلام دين قوة لا ضعف ، وقد حث أتباعه على إعداد القوة دائماً ، وأثنى على الأقوياء ...

والدعاة إلى الله يواجهون كثيراً من العقبات .. ، ويصابون بكثير من الإيذاء ...

فما حكم استخدامهم للقوة والشدة ... ؟

هل تستخدم فى كل حال ، وليكن ما يكون ؟

---

(١) العنكبوت : ٢ .

(٢) الصف / ١٠ : ١٤ .

(٣) مجموعة الرسائل (بين الأمس واليوم) ص ١٤٢ : ١٤٣ .

يجيب لنا الإمام الشهيد على هذه الأمور الشائكة ، التى تجول فى نفوس كثير من السائرين على الطريق .

يجيب إجابة تقى من الدمار ، وتنجى من العثار .

فيقول رحمه الله :

القوة شعار الإسلام :

« أما القوة فشعار الإسلام فى كل نظمه وتشريعاته ، فالقرآن الكريم ينادى فى وضوح وجلاء : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾[1] .

والنبى ﷺ يقول : ﴿ **المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف** ﴾[2] .

بل إن القوة شعار الإسلام حتى فى الدعاء ، وهو مظهر الخشوع والمسكنة ، واسمع ما كان يدعو به النبى ﷺ فى خاصة نفسه ، ويعلمه أصحابه ويناجى به ربه :

« اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال »[3] .

---

(١) الأنفال : ٦٠ .

(٢) مسلم (٢٦٦٤) .

(٣) (خ ٢٨٩٣ ، ت ٣٤٨٥) .

ألا ترى فى هذه الأدعية أنه قد استعاذ بالله من كل مظهر من مظاهر الضعف :

ضعف الإرادة بالهم والحزن .

وضعف الإنتاج بالعجز والكسل .

وضعف الجيب والمال بالجبن والبخل .

وضعف العزة والكرامة بالدين والقهر ؟

فماذا تريد من إنسان يتبع هذا الدين إلا أن يكون قوياً فى كل شىء ، شعاره القوة فى كل شىء ؟

فالإخوان المسلمون لابد أن يكونوا أقوياء ، ولابد أن يعملوا فى قوة .

درجات القوة :

ولكن الإخوان المسلمين أعمق فكراً ، وأبعد نظراً من أن تستهويهم سطحية الأعمال والفكر .

فلا يغوصوا إلى أعماقها ، ولا يزنوا نتائجها ، وما يقصد منها ، وما يراد بها .

فهم يعلمون أن أول درجة من درجات القوة :

قوة العقيدة والإيمان ، ويلى ذلك قوة الوحدة والارتباط ثم بعدهما قوة الساعد والسلاح .

ولا يصح أن توصف جماعة بالقوة حتى تتوفر لها هذه المعانى

جميعاً .

للقـــوة أوقـات :

وإنها إذا استخدمت قوة الساعد والسلاح وهى مفككة الأوصال ، مضطربة النظام ، أو ضعيفة العقيدة ، خامدة الإيمان ، فسيكون مصيرها الفناء والهلاك .

هذه نظرة ، ونظرة أخرى :

هل أوصى الإسلام ـــ والقوة شعاره ـــ باستخدام القوة فى كل الظروف والأحوال ؟

أم حدد لذلك حدوداً ، واشترط شروطاً ، ووجه القوة توجيهاً محدوداً ؟

ونظرة ثالثة :

هل تكون القوة أول العلاج أم أن آخر الدواء الكى ؟

وهل من الواجب أن يوازن الإنسان بين نتائج استخدام القوة النافعة ، ونتائجها الضارة ، وما يحيط بهذا الاستخدام من ظروف ؟

أم من واجبه أن يستخدم القوة وليكن بعد ذلك مايكون ؟

سنستخدم القوة فى وقتها :

هذه نظرات يلقيها الإخوان المسلمون على أسلوب استخدام القوة قبل أن يقدموا عليه ، والثورة أعظم مظاهر القوة . فنظر الإخوان المسلمين إليها أدق وأعمق ، وبخاصة فى وطن كمصر ،

جرب حظه فى الثورات فلم يجن من ورائها إلا ما تعلمون .

وبعد كل هذه النظرات والتقديرات أقول لهؤلاء المتسائلين : إن الإخوان المسلمين سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدى غيرها . وحيث يثقون أنهم قد استكملوا عدة الإيمان والوحدة .

وهم حين يستخدمون هذه القوة سيكونون شرفاء صرحاء ، وسينذرون أولاً .

وينتظرون بعد ذلك .

ثم يقدمون فى كل كرامة وعزة .

ويحتملون كل نتائج موقفهم هذا بكل رضاء وارتياح »[1] .

مما سبق نرى أن الإمامين التقيا فى فقه الاحتساب وكيفية التحرك بالدعوة تحركاً دقيقاً ملتزماً بهدى الشرع الحنيف الذى يضع كل خطوة فى وقتها المناسب ومكانها المناسب . فلا انطلاقة فائرة ، ولا حركة فاترة .

لا اندفاعة متهورة ، ولا موت وخمود ...

إنما هى حركة الفارس الشجاع الجسور فى الميدان الذى يحسن الكر والفر ، والإقدام والإحجام ، بقلب ثابت ، وفؤاد رابط ، وعقل ثاقب ، ودقة فى الفهم ، وحكمة فى التطبيق .

---

(١) مجموعة الرسائل (المؤتمر الخامس) ص ١٦٩ : ١٧٠ .

مواقـــف :

لقد قدم الإمام الشهيد لأبناء هذا الجيل مواقف إسلامية رائعة سامية لاتصالها بالإسلام .

فلقد كان رحمه الله مثالاً حياً للإسلام الشامل .

ونحسبه ممن آتاهم الله تبارك وتعالى الحكمة .

﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ﴾(١) .

فقد استطاع بهذه الحكمة أن يسجل للتاريخ مواقف من أعظم مواقف الإيمان :

فقد أحيا الله به الأمة

وأقض به مضاجع الطغاة .

فتعلمت الأمة معانى الكرامة والعزة بعد فقدها .

العزة بدينها عقيدة وشريعة ومنهج حياة .

ورفعت راية الجهاد بعد طول غياب .

ولقنوا الطغاة دروساً لن ينسوها ..

وما زالت الانطلاقة ممتدة سائرة تعد وتجهز للضربة القاصمة ، التى اشتاقت إليها النفوس الظامئة .

﴿ وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر

(١) البقرة : ٢٦٩ .

المؤمنين ﴾(١) .

والآن أضع بين يدى القارىء بعض مواقف الإمام الشهيد التى تجلى فقهه للدعوة ، وخلقه ، وشجاعته ... عسى الله أن ينفع بها السائرين على الطريق .

أولاً : الحرص على ربانية الدعوة :

لقد حرص الإمام الشهيد على المحافظة على ربانية الدعوة ، وعلم أتباعه هذه الحقيقة بالكلمة التقية ، والمواقف الحية .

فقد كان يحرص كل الحرص على أن ترتبط الدعوة بالله تعالى ولا يكون للأشخاص حظ فيها .

ومما يجلى ذلك ، الموقف التالى :

« كان ذلك فى مؤتمر الطلاب للإخوان المسلمين الذى انعقد بدار جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة عام ١٩٣٨ م حين وقف حسن البنا للخطابة ، إذ تحمس أحد الإخوة من الطلاب ، فهتف بحياة حسن البنا — وبرغم عدم استجابة الحاضرين لهذا الهتاف — إلا أن فضيلته وقف صامتاً لا يتحرك برهة ، فاتجهت إليه الأنظار فى تطلع .. ثم بدأ حديثه فى غضب فقال :

أيها الإخوان إن اليوم الذى يهتف فى دعوتنا بأشخاص لن يكون ، ولن يأتى أبداً .

(١) الصف : ١٣ .

إن دعوتنا إسلامية ربانية قامت على عقيدة التوحيد ، فلن نحيد عنها .

أيها الإخوان ، لا تنسوا فى غمرة الحماس الأصول التى آمنا وهتفنا بها « الرسول قدوتنا » ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما** ﴾[1] .

وموقف شبيـه :

« فى مدينة رشيد أقام الإخوان حفلاً بمناسبة ذكرى الإسراء والمعراج على صاحبهما أفضل الصلاة والسلام .

وحين جاء أحد المتكلمين فى الحفل ، وقد كان من المتحمسين لنشر دعوة الإخوان ، قام متحدثاً إلى الناس فقال : إن مثلنا الآن من فضيلة الأستاذ المرشد وهو يشير إليه ، كمثل رسول الله ﷺ بين أصحابه .

وما كاد الأستاذ المتحدث ينتهى من هذه العبارة حتى قفز الإمام الشهيد إلى المنصة ثم اتجه إلى الناس قائلاً :

أيها الإخوة :

معذرة إذا كان الأستاذ المتحدث قد خانه التعبير ، فأين نحن من تلامذة تلامذة رسول الله ﷺ ؟ ثم نزل إلى مكانه ، ولم يستطع الأستاذ المتحدث إكمال الحديث كما بدأه .

(١) الأحزاب : ٥٦ .

وفى اليوم التالى انقطع اتصاله بالإخوان فى الإسكندريه وبعد مدة أعلن عن تكوين جمعية التقوى والإرشاد !! »[1] .

هكذا كان الإمام الشهيد يعلم أبناء الدعوة أن الله هو الغاية ، والرسول هو القدوة .

ثانياً : تأسيس الجوالة :

لقد كان الإمام الشهيد يعمل على إيجاد المجاهد الكامل إيمانياً وثقافياً وبدنياً . لينطلق لإعلاء راية الله تعالى .

وكان هناك كثير من العقبات .

غير أن الإمام الشهيد استطاع بما من الله عليه من فقه للدعوة وحكمة فى التطبيق أن يتجاوزها .

ويتجلى ذلك فى نظام الجوالة .

فقد استطاع من خلاله أن يربى الشباب ويعدهم مستقبلاً للجهاد ، وقد نجح بفضل الله .

فماذا فعل والإنجليز وأذنابهم العبيد يتربصون به ؟

وكيف استطاع اجتياز العقبات الكثيرة ؟

فإليك الجواب :

« كان الأستاذ يتحرق شوقاً إلى إبراز النشاط العسكرى ،

(١) حسن البنا : مواقف فى الدعوة عباس السيسى ص ٦٥ ، ٦٦ .

لتجلية فكرة الجهاد، ولكنه رأى الدعوة لا زالت فى مهدها ، ولم تتجاوز فى طورها الجديد مرحلة الحبو ، ورأى الحكومات المصرية ومن ورائها الإنجليز لابد أنهم متربصون — فى يوم ما — بالدعوة الدوائر ، لأنها عدوهم الأساسى ؛

إذن فلابد من أن تتحاشى الدعوة فى هذا الطور كل مايعتبرونه فى عرفهم خروجاً على القانون .

وفى الثلث الأخير من الثلاثينات كان تكوين منظمات عسكرية لا يعد خروجاً على القانون فحسب بل يعد إحدى الكبائر ... لهذا لجأ الإمام الشهيد فى إبراز الطور الجديد فى خاطره إلى مظهر ألبسه لباس القانون .

ولم يكن فى مصر إذ ذاك صورة فيها رائحة العسكرية مسموح بها إلا جمعية الكشافة الأهلية .

وكان صغار السن من المنتسبين إليها يسمون (كشافة) وكان الكبار يسمون (جوالة) .

وصار للإخوان المسلمين فرقة جوالة منتسبة إلى جمعية الكشافة الأهلية .

وتبنى الإخوان قانون الكشافة وهو يتمشى مع الفضائل الاجتماعية التى يدعو إليها الإسلام ...

وقد كانوا يحافظون على أداء الصلاة فى أوقاتها مهما كانت الظروف ... وكم من الشباب تم إصلاحه ، وظهرت مواهبه على يد

جوالة الإخوان المسلمين ، وكان من قبل شباباً لاهيا عابثاً ...

وفى هذه الأيام كانت الهيئات السياسية تنشىء فرقاً عسكرية من شبابها ، وكانت جوالة الإخوان المسلمين موضع سخرية من هذه الهيئات ، وكانت الهيئات ترميهم بالضعف لركونهم إلى نظام رسمى حكومى .

وكان شباب الإخوان يشكون إلى الأستاذ المرشد تلك الحملات اللاذعة المؤلمة نفسياً ...

فكان الأستاذ المرشد يطمئن نفوسهم ويقول : لا تعبأوا بأقوالهم ، واصبروا ، وسترون أن العاقبة لنا ...

ودارت الأيام وجاءت حكومة من الحكومات الظالمة وضربت الهيئات السياسية ضربة قاصمة ، فأصدرت قوانين تحرم على الهيئات أن يكون لها فرق عسكرية أو شبه عسكرية ذات قمصان ملونة ، فألغيت هذه الفرق بين يوم وليلة ...

ولم تبق إلا فرق جوالة الإخوان لأنها نظام معترف به فى الدولة والفرق مسجلة فى جمعية الكشافة الأهلية فكان الإمام الشهيد أبعد نظراً ، وأدق فهماً[1] .

وأخذ الشباب ينمون ، ويمارسون نشاطهم ، دون أن يفقدوا شيئاً من قيم دينهم ومبادئه .

(١) الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ محمود عبد الحليم جـ ١ ص١٦٢ : ١٦٥ .

فكانت سخرية الله من أعداء دينه أن يفتح لدعوته أبواباً فى قصر فرعون ، فيدخلها جنده ويتربون فيها فى أمن وأمان تحت حفظ الله ورعايته ...

حتى إذا بلغوا أشدهم واستووا أقضوا مضجع فرعون وجنده ، وكانت نهايته على أيديهم .

﴿ **والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[1]

ثالثاً : الجهاد :

لقد كان الإمام الشهيد رجل قول وعمل ، يربى الجيل الجديد على الإسلام الشامل عقيدة وشريعة ومنهج حياة ، تربية حية جدية بناءة عملية .

وكان يغرس فيهم معانى العزة بالانتساب لهذا الدين وبالعبودية لرب العالمين لا شريك له .

لينطلقوا بالدعوة الإسلامية يجاهدون فى سبيلها ، ويبذلون كل غالٍ وثمين من أجلها ، كما فعل أسلافهم .

وكان الإمام الشهيد يقودهم فى معركة الجهاد هذه . فقد تصدى للإنجليز طواغيت الأرض فى ذلك الوقت ، ثابت الجأش ، غير مبال بالموت .

ولقنهم دروساً قاسية فى فلسطين ، وأقضى مضاجعهم ، وأرق

---

(١) يوسف : ٢١ .

منامهم .

ولقد كانت قضية فلسطين مجلية لبطولات الإخوان المسلمين والإمام الشهيد .

فقد انطلقوا حين تقاعس الناس وتقدموا حين تأخر الناس وجاهدوا حين جبن الناس وضحوا حين بخل الناس وحرصوا على الموت حين حرص الناس على الحياة . وإليك هذا الموقف المجلى للشجاعة والجهاد ...

(استطاعت اللجنة العربية العليا لفلسطين أن تطبع كتاباً سمته « النار والدمار فى فلسطين » وأمدت الإخوان المسلمين بعشرات الألوف منه ، والكتاب يشرح ألوان الفظائع والتعذيب التى ارتكبها الإنجليز ضد مجاهدى فلسطين ، وكل نوع معزز بصورة فوتوغرافية وبأسماء المجاهدين الذين ارتكب معهم هذا التعذيب ..

وقد قام الإخوان بتوزيعه فى أسرع وقت ، فلم تمض ثلاثة أيام حتى عم الكتاب القاهرة وأنحاء الأقاليم ، وقامت قيامة الصحف البريطانية والبرلمان البريطانى لمواجهة هذه الكارثة المدمرة .

وداهمت المركز العام قوة من رجال البوليس وفتشت الدار ، وكان باقياً من الكتاب سبعمائة وخمسون نسخة فتحفظت عليها ، وسأل رئيس القوة عن صاحب هذه الكتب ؟ فتقدم إليه الأستاذ المرشد ، وقال : أنا صاحبها ، فنقلت القوة النسخ إلى سيارة كانت تنتظرها ، وطلب الضابط من الأستاذ المرشد أن يصحبه إلى النيابة وبدأ وكيل النيابة فى التحقيق مع الأستاذ على الوجه الآتى :

س : هل أنت صاحب هذه الكتب ؟

جـ : نعم أنا صاحبها .

س : ألا تعلم أن هذه الكتب تهاجم السلطات وتثير الشعب ضد دولة صديقة وحليفة بحكم المعاهدة ؟

جـ : أعلم ذلك وقد قصدت مهاجمة هذه السلطات ومهاجمة هذه الدولة الحليفة .

س : ألا تعلم أن القانون يعاقب على هذه الجريمة ؟

جـ : أعلم : وأنا لا أمانع فى إحالتى إلى القضاء لأننى معترف بهذه الجريمة ومصر عليها .

ثم رفعت صورة التحقيق للمسئولين فى السفارة البريطانية فغضب السفير غضباً شديداً وقال لوزير الداخلية : إنك بهذا التحقيق قدمت لحسن البنا أعظم خدمة دون أن تدرى ... لقد استطاع هذا الرجل أن يضحك عليكم .. لقد وزع الكتاب وأصبح فى أيدى الناس فى كل مكان .. وما صادرتموه منه لا يعد شيئا يذكر بجانب ماتم توزيعه .. إن أمنية هذا الرجل هى أن يقدم إلى القضاء ليتخذ من منصة الدفاع عن نفسه فى هذه القضية السياسية وسيلة إلى نشر أفكاره ، وإلى إسماع من لم يصل إليه عن طريق الصحف التى ستتبارى فى نشر مايقال فى القضية كدأب الصحف فى القضايا السياسية ... هذا التحقيق يجب أن يحفظ وأن يفرج عن الأستاذ البنا فى الحال .

وأفرج عن الأستاذ المرشد فعلاً قبل أن يتم فى الحبس أربعاً وعشرين ساعة . وقد فوجىء الأستاذ بهذا الإفراج لأنه كان يعتقد أن حكام مصر من الغباء بحيث لا يفهمون هدفه .. وقد زالت الحيرة من هذه المفاجأة حين جاءت عيون الجماعة التى كانت ترصد التحركات وأخبروا الجماعة بما كان من أمر الداخلية مع السفير البريطانى ..)[١] .

هذا غيض من فيض من أقوال ومواقف الإمامين رحمة الله عليهما ، التقت على طريق واحد ، لانطلاقها من قاعدة واحدة . قاعدة الإسلام .

وفى حياة الإمامين كثير من الزاد لمن أراد .

فليحرص الدعاة على التفقه والعيش مع سير العلماء الأعلام ، والأئمة الكرام ، ليرقوا ويسموا « ومن لم يطلع على أسرار سِيَر السلف وحال الذى تمذهب له لم يمكنهم سلوك طريقهم .

وينبغى أن يعلم أن الطبع لص ، فإذا ترك مع أهل هذا الزمان سرق من طبائعهم فصار مثلهم .

فإذا نظر فى سير القدماء زاحمهم ، وتأدب بأخلاقهم »[٢] .

---

(١) المصدر السابق / جـ ١ ص ١٧٦ .

(٢) تلبيس إبليس لابن الجوزى ص ١١٩ .

الخاتمـــة

تلك جولة مع إمامين جليلين تجلى من خلالها التقاؤهما على طريق الدعوة مصدراً وفكراً ، فقهاً وعملاً ، ولا عجب فى ذلك مع تباعد الزمان واختلاف المكان ، فتلك طبيعة دعاة الحق دائماً .

ولقد اكتفيت بعرض نماذج تدل على هذا الالتقاء ، ولم أعمل على الاستقصاء ، فليس ذلك قصدى ، وفى هذه النماذج الدقيقة ما يدل على غيره من باب أولى .

وأحب أن أنبه القارىء إلى ضرورة ملاحظة اختلاف البيئة والعصر الذى نشأ فيه كل إمام ، فلكل عصر مشكلاته ومتطلباته ، وخصائصه الفكرية ... ومن ثم فلابد أن تختلف الأساليب والوسائل فى تناول القضايا مع المحافظة على الأصول الثابتة .

ولقد تجلى ذلك من خلال تناول شيخ الإسلام لبعض القضايا فى رسائل مفصلة نافعة ، على حين يتناولها الإمام الشهيد فى عبارات موجزة جامعة .

وكذلك قد تكون أمراض اليوم الخطيرة أعراضاً بالأمس .

وقد تكون أعراض اليوم الخفيفة أمراضاً خطيرة بالأمس .

ومن ثم تتفاوت الجهود الموجهة لكل منها حسب حجمه .

ومن طَوَّفَ ببصره فى تاريخ هذا الدين ، وتراث مجددى الإسلام على مر العصور أدرك تلك الحقائق .

فعلى شباب الصحوة الإسلامية أن يدركوا ذلك جيداً ، وأن يوقروا علماءهم ، ويحرصوا على الاستفادة من تراثهم وخبراتهم وتجاربهم ... وأن ينزلوا علماء الإسلام ودعاته المنزلة التى أمر الله بها بلا إفراط ولا تفريط .

وعليهم ألا يبالوا بالتشكيكات التى تثار حول دعاة الإسلام الأفاضل بل ينبغى أن يظهروا محاسنهم ويجلوها أمام الأنظار ، ويستروا العيوب ويلتمسوا لها الأعذار ، ولا يشنعوا بها تشنيع الحاقدين المغضبين .

فمن ذا الذى يخلو من المآخذ ، وينجو من الزلل ؟

وإذا أشكل على الأخ المسلم فهم مسألة ، أو فقه موقف ... فعليه أن يسأل ويستوضح ، ولا يرخى لفهمه المغلق العنان فيلوى أعناق المعانى والمقاصد ، ويسقط فيما لا تحمد عقباه .

ومن إرشادات رسول الله ﷺ فى هذا المقام ما جاء فى قوله : « إنما شفاء العى السؤال » .

ومن جعل همه الاستفادة لا النقد والتجريح أعانه الله .

ومن حرص على الألفة والوئام لا الفرقة والخصام وفقه الله .

وفى الختام فإننى أرحب بكلّ نصح وإرشاد حول هذه الدراسة .

وأسأل الله أن يرزقنا الصدق والإخلاص فى القول والعمل وأن يتجاوز بعفوه وكرمه عن زلاتنا وأن يغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان وصلى الله وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

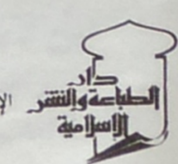
الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

رقم الإيداع

١٩٨٨ / ٧٦١٧



دار الطباعة والنشر الإسلامية

الإدارة والمطابع : مدينة العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ ت : ٣٦٢٣١٣

مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانىء الأندلسى ت : ٦١٨١٣٧